

جميل حمد اوي

التداوليات بين النظرية والتطبيق



بسم الله الرحمن الرحيم

المؤلف: جميل حمداوي

الكتاب: التداوليات بين النظرية والتطبيق

الطبعة الأولى 2019

دار الريف للطبع والنشر الإلكتروني

الناظور - تطوان / المملكة المغربية

الهاتف: 0672354338/0536333488

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الإهداء

أهدي هذا الكتاب إلى أختي الرائعة سكينة حمداوي،
متمنيا لها جنة الفردوس إلى جانب زوجها عمر حمداوي.

الفهرس

الإهداء

4.....	الفهرس
5.....	مقدمة
7.....	الفصل الأول: مفهوم التداوليات
104.....	الفصل الثاني: (نشيد الجبار) في ضوء المعينات الإشارية
134.....	الفصل الثالث: تداوليات التلفظ في الشعر المعاصر
146.....	الفصل الرابع: المعينات في الرواية السعودية
163.....	خاتمة
165.....	ثبت المصادر والمراجع

مقدمة

يقصد بالمقاربة التداولية تلك النظرية النقدية التي تدرس الظواهر الأدبية والثقافية والفنية والجمالية في ضوء التداوليات اللسانية. ويعني هذا أن المقاربة التداولية تدرس النص أو الخطاب الأدبي في علاقته بالسياق التواصلية،

والتركيز على أفعال الكلام، واستكشاف العلامات المنطقية الحجاجية، والاهتمام بالسياق التواصلي والتلفظي.

وبتعبير آخر، تركز المقاربة التداولية على عنصر المقصدية والوظيفة في النصوص والخطابات. وبهذا، تكون التداوليات قد تجاوزت سؤال البنية وسؤال الدلالة معا، لتتجهت بسؤال الوظيفة، والدور، والرسالة، والمقصدية، والسياق الوظيفي.

كما تعنى المقاربة التداولية بفهم العلاقات الموجودة بين المتكلم والمتلقي ضمن سياق معين؛ لأن البعد التداولي ينبني على سلطة المعرفة والاعتقاد. وتسمى هذه المقاربة كذلك بالمقاربة التواصلية، أو المقاربة الوظيفية، أو المقاربة الذرائعية، أو المقاربة المنطقية، أو المقاربة البراجماتية، أو المقاربة الحجاجية... وهلم جرا.

ومن جهة أخرى، فللتداولية علاقة وثيقة بالحجاج؛ حيث يرتبط الحجاج التداولي (**La pragmatique**) بالمقاربة الذرائعية، أو اللسانيات التداولية أو الوظيفية أو البراجماتية، على أساس أن هذا الحجاج مقترن بالسياق من جهة، والوظيفة من جهة أخرى. بمعنى أن اللغة تداول سياقي وحجاجي وحواري في علاقة وثيقة بالمقام التواصلي السياقي. أي: لكل مقام مقال.

ومن هنا، تعني التداوليات الحجاجية دراسة اللغة الإنسانية من وجهة لسانية تداولية، بالتوقف عند الخطاب الحجاجي، ورصد الروابط والعوامل الحجاجية، واستجلاء القواعد الحجاجية، والتركيز على المواضيع **Les topo** (i) الحجاجية، واستكشاف أفعال الكلام، وتحديد السياقات الإنجازية، والبحث عن مختلف الوظائف التداولية التي يؤديها الكلام¹...

وإذا كانت المقاربة التداولية قد عرفت انتشارا في الغرب، فإن هذه المقاربة مازالت في بداياتها الأولى في العالم العربي، على الرغم من وجود آثارها في

¹ - MOESCHLER J., : *Argumentation et conversation : Eléments pour une analyse pragmatique du discours*, université de Genève, HATIER-CREDIF.1985

تراثنا العربي القديم في البلاغة، والفقه، والفلسفة، وأصول الفقه...، ولم يتم استدماجها بعد في حقنا الثقافي العربي الحديث والمعاصر لمقاربة النصوص والخطابات الأدبية والإبداعية، ماعدا بعض الاستثناءات القليلة التي تعد على الأصابع.

إذاً، ما المقاربة التداولية؟ وما سياقها المعرفي والتاريخي؟ وما مجمل التصورات التداولية تجاه النص أو الخطاب الأدبي؟ وما حدود هذه المقاربة إن تنظيراً وإن تطبيقاً؟

هذا ماسوف نرصده في كتابنا هذا الذي عنوانه بـ(التداوليات وتحليل الخطاب)، على أساس أن ليس هناك مقاربة تداولية واحدة، بل هناك عدة تيارات واتجاهات ومدارس تعنى بالفعل التداولي والحجاجي والتواصلي، سواء أكان لسانياً، أم أدبياً، أم نقدياً، أم فلسفياً، أم منطقياً.

ونرجو من الله عز وجل أن يلقي هذا الكتاب المتواضع رضا القراء، ويعود عليهم بالنفع والفائدة، داعياً لنفسه بالمغفرة والتوبة من أي تقصير، أو ادعاء، أو نسيان، أو خطأ، أو سهو.

الفصل الأول:

مفهوم التداوليات

المطلب الأول: تحديد المصطلح

يترجم مصطلح (Pragmatique) بعدة كلمات باللغة العربية كالذرائعية، والتداولية، والبراجماتية، والوظيفية، والاستعمالية، والتخاطبية، والنفعية، والتبادلية...

لكن أفضل مصطلح، في منظورنا، هو التداولية ؛ لأنه مصطلح شائع بين الدارسين في ميدان اللغة واللسانيات من جهة؛ ولأنه يحيل على التفاعل والحوار والتخاطب والتواصل والتداول بين الأطراف المتلفظة من جهة أخرى. أما مفهوم الذرائعية، فيدل على مدرسة فلسفية ظهرت في الولايات

المتحدة الأمريكية، في القرن التاسع عشر ، مع جون ديوي وويليام جيمس اللذين يريان أن الحقيقة تكمن في طابعها المنفعي والمصلحي. ويعني هذا أن الحقيقة الصادقة واليقينية هي التي تحقق المنفعة والمصلحة للإنسان، وتحقق المشاريع المستقبلية الهادفة، وتسهم في تنمية الأفراد والرقى بالمجتمعات ، بتحقيق المردودية والإنتاجية، والارتباط بالحياة العملية والواقعية المفيدة. ومن ثم، تعد كل الأفكار والحقائق التي لا تحقق مصلحة أو منفعة للإنسان، ولا تفيد المرء في حياته اليومية والعملية، مجرد حقائق زائفة، وغير نافعة، ولا مجدية إطلاقاً. ومن هنا، فالحقيقي هو المفيد والنافع والصالح. لكن قد تختلف المنافع والمصالح من فرد إلى آخر، ومن جماعة إلى جماعة، وقد تسبب هذه المصالح في صراعات شرسة بين الناس.

وعلى الرغم من هذا الطابع السلبي للحقائق البراجماتية العملية، فإن المصلحة أو الحقيقة البراجماتية هي حقيقة مستقبلية ، تدفع الإنسان إلى العمل والاجتهاد والإنتاج والرفع من المردودية ، وتحصيل الكفاءات الحقيقية من أجل تحقيق ما يصبو إليه الإنسان من مكانة رفيعة في المجتمع. ومن هنا، يأخذ المجتمع الأمريكي والإنجليزي بهذا النوع من الحقيقة المقترنة بالمنفعة والمصلحة المادية أو المعنوية. وبكل بساطة، يقوم الصحيح ، عند وليام جيمس، على ما هو مفيد لفكرنا، وينبني الصائب أيضاً على ما هو مفيد لسلوكنا.²

ومن هنا، يرى البراجماتيون أن الأفكار الحقيقية هي " تلك التي نستطيع أن نستوعبها، ونستطيع أن نصادق على صحتها، ونستطيع أن نعززها بفعل انخراطنا فيها، وأخيراً أن نتحقق منها...

هذه هي الأطروحة التي أَدافع عنها- يقول وليام جيمس- حقيقة فكرة ما ليست خاصة متضمنة فيها، وتبقى غير فاعلة. الحقيقة هي حدث يتم إنتاجه من أجل فكرة ما، وتصير هذه الأخيرة حقيقة بفضل بعض الوقائع. إنها تكتسب حقيقتها من خلال العمل الذي تنجزه. أي: العمل الذي يقتضي أن تتحقق من نفسها

² - W. James : le pragmatisme, traduction E.Le Brun, Edition Flammarion, 1968, p: 151.

بنفسها، ويكون هدفها ونتيجتها التحقق الذاتي؛ كما أنها تكتسب صلاحيتها بإنجازها لعمل يهدف إلى نتيجة تتمثل في إثبات مصداقيتها.³

إذاً، لا يرى البراجماتيون في الحقيقة إلا طابعها المادي ومنحائها المنفعي والمصلحي لتحقيق التنمية والتقدم. بينما يجب أن تكون الحقيقة في جوهرها معرفية وعملية وأخلاقية.

أما اللساني المغربي أحمد المتوكل في كتابه (اللسانيات الوظيفية)، فيستعمل الوظيفية والتداولية بمفهوم واحد⁴. في حين، يستخدم سعد البازعي وميجان الرويلي مصطلح (الذرائعية) كما في كتابهما (دليل الناقد الفني)⁵. وإذا انتقلنا إلى محمد محمد يونس علي، فيفضل استعمال مصطلح علم التخاطب. وفي هذا الصدد، يقول الباحث: "أفضل ترجمة مصطلح (Pragmatics) بعلم التخاطب، وليس بالتداولية، أو النفعية، أو الذرائعية كما يفعل عدد من اللسانيين العرب توهمهم بأن (Pragmatics)، و (Pragmatism) شيء واحد. والواقع أن المصطلح الأول يطلق على الدراسات التي تعنى بالمعنى في السياقات الفعلية للكلام، وهو ما يتفق مع معناها الحرفي، وهو علم الاستعمال. وإذا نظرنا في تراثنا البلاغي والأصولي، فنلاحظ أن الاستعمال- الذي يقابل الوضع عادة- يطلق على النشاط الذي يقوم به المتكلم في عملية التخاطب. ولذا، فإن ترجمة (Pragmatics) بعلم التخاطب أنسب- في رأيي- من الخيارات التي اطلعت عليها حتى الآن. أما (Pragmatism) فهي مدرسة فلسفية ظهرت في أمريكا تذهب إلى أن الفكرة النظرية لا تجدي نفعاً ما لم تكن لها تطبيقات عملية. وعلى الرغم من وجود صلة منهجية بين المجالين (والمصطلحين) تكمن في التقليل من شأن المجرد، والعناية بما هو عملي، وسياقي، ومتحقق فعلاً؛ فإن اهتمام الحقل المسمى بـ (Pragmatism)

³ - W. James : le pragmatisme, traduction E.Le Brun, Edition Flammarion, 1968, p: 142-144.

⁴ - أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 2010م.

⁵ - سعد البازعي وميجان الرويلي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، سنة 2000م، ص: 100.

يقتصر على اللغة خاصة. في حين، يعني الحقل الآخر بالفلسفة، وإن امتدت آثاره في السياسة، وعلم الاجتماع، وغيرهما.⁶

وعلى أي حال، سواء أخذنا بالتداولية أم بالتخاطبية، فالمصطلحان معا أفضل بكثير من مصطلح الذرائعية الذي يحيل على الفلسفة المنفعية أكثر مما يحيل على اللغة ومكوناتها اللسانية.

المطلب الثاني: مفهوم المقاربة التداولية

يقصد بالمقاربة التداولية تلك المنهجية التي تدرس الجانب الوظيفي والتداولي والسياقي في النص أو الخطاب، وتدرس مجمل العلاقات الموجودة بين المتكلم والمخاطب، بالتركيز على البعد الحجاجي والإقناعي وأفعال الكلام داخل النص. بمعنى أن التداوليات هي ذلك " العلم الذي يدرس المعنى، مع التركيز على العلاقة بين العلامات ومستعملاتها والسياق، أكثر من اهتمامها بالمرجع أو بالحقيقة، أو بالتركيب.⁷

وتهتم التداوليات أيضا بالمرجع والإحالة التي أقصيت من قبل فرديناند دوسوسير الذي حصر العلامة في الدال والمدلول. ومن ثم، ترفض المقاربة التداولية في مجال الأدب والنقد واللسانيات، مثلا، التركيز على البنيات الشكلية والجمالية، دون مساءلة أفعال الكلام والمقصدية الوظيفية.

⁶ - محمد محمد يونس علي: مدخل إلى اللسانيات، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 2004م، ص: 102، (الهامش).

⁷ - A.J.Greimas.J.Courtés: Sémiotique.Dictionnaire Raisonné de la théorie du langage. Hachette Université, Paris, 1979, Sémiologie, pp: 335-339.

فضلا عن ذلك، تدرس المقاربة التداولية اللغة العادية واللغة اللاعادية (اللغة الشعرية، اللغة الروائية، واللغة الدرامية..)، وحضور الأنا والأنت، والسياق التواصل، والوظيفة المقامية والمقالية، والانتقال من الحرفي إلى الإنجازي، ودراسة الحجاج في النصوص والخطابات التي يكون هدفها هو الإقناع الذهني والتأثير العاطفي الوجداني، وأيضا دراسة السرد الإقناعي كما عند غريماس، وخاصة في خانة التطويع والتحفيز المبنية على فعل الاعتقاد، وفعل التأويل، وخانة الكفاءة المبنية على منطق الجهات (وجود الفعل، ومعرفة الفعل، وقدرة الفعل، وإرادة الفعل).

وعليه، فالمقاربة التداولية هي دراسة العلامات في علاقة مع مستعملها. ومن ثم، تركز اللغة على ثلاثة مكونات ضرورية ومتكاملة حسب السيميائي شارل موريس (Ch. Morris)، وهي: التركيب، والدلالة، والوظيفة⁸.

أضف إلى ذلك فللغة ثلاثة مظاهر: مظهر خطابي، ومظهر تواصل، ومظهر اجتماعي. لذا، فالمقاربة التداولية هي التي تركز على الجانب التواصل في اللغة الطبيعية. وتستند المقاربة التداولية كذلك إلى تخصصات عدة. فهناك- مثلا- تداولية تحليلية، وتداولية تلفظية، وتداولية نفسية- اجتماعية، وتداولية نصية، وتداولية سوسiolغوية...

ومن هنا، تدرس المقاربة التداولية الإشارات، والمقصدية، وأفعال الكلام، والوظيفة، والسياق، والإحالة المرجعية، والحجاج اللغوي، والإقناع..، والحوارية...

المطلب الثالث: سياق ظهور المقاربة التداولية

لقد ظهرت الدراسات التداولية في الولايات المتحدة الأمريكية في القرن التاسع عشر الميلادي، وتطورت بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة. ومن ثم، فقد تبلورت النظرية البراغمية مع وليام جيمس (William James) (-1842)

⁸- Roland Posner, *Classics of Semiotics*, New York, Springer US, 1987 (ISBN 978-1-4757-9702-2), "Charles Morris and the Behavioral Foundations of Semiotics" (page 23-57).

1910م) الذي اهتم بالجانب المنفعي والمصلحي، وقد ربط الفكرة بطابعها المنفعي في الواقع، بالتشديد على المصلحة والمنفعة والإنتاجية بغية بناء مستقبل عملي زاهر.

أما شارل ساندرس بيرس (Charles S. Peirce) (1834-1914)، فقد اهتم بتداولية سيميائية قائمة على نظام العلامات، فقد ميز بين الرمز، والإشارة، والأيقون. وبدأ في تفريعها إلى أقطاب سيميائية ثلاثية ذات طابع منطقي، ووجودي، وأنطولوجي⁹.

وبعده، جاء شارل موريس ليميز بين ثلاثة مظاهر في اللغة الطبيعية : المظهر التركيبي، والمظهر الدلالي، والمظهر التداولي¹⁰. وبذلك، بشر موريس بالمقاربة التداولية التي تعنى بالوظيفة السياقية. وقد جاءت هذه المقاربة الوظيفية السياقية رد فعل على منهجية نوام شومسكي التي تركز على التركيب والدلالة، وتقصي الوظيفة السياقية، وهي وظيفة ضرورية لاكتمال الفهم الحقيقي المتعلق باللغة الإنسانية، على الرغم من أن نوام شومسكي، فيما بعد، أدمج القدرة التداولية إلى جانب القدرة الكفائية ضمن نظريته اللسانية التفسيرية التي تسمى بالنظرية التوليدية التحويلية (Generative grammar).

ويمكن الحديث عن مجموعة من التداوليات والتيارات الذرائعية في الغرب من بينها:

⁹ -John Dewey, « Peirce's Theory of Linguistic Signs, Thought, and Meaning. », *The Journal of Philosophy*, Vol. 43, No. 4, 14 février 1946, p. 85-95.

¹⁰ -Charles W. Morris: *Foundations of the Theory of Signs* (1938). Tr. fr. partielle : « Fondements de la théorie des signes », *Langages*, vol. 35 (1974), p. 15-21, Paris, Larousse ; *Signs, Language, and Behavior* (1946) ; *Signification and Significance* (1964) ; *Writings on the General Theory of Signs* (1971).

أولاً، تيار موريس الذي يتزعمه كل من بنيفينست، ولانيس، وأوريكشيوني... وقد ركز هؤلاء على نظرية التلفظ، فربطوها بالسياق التواصلية الذي ينبني على المعينات أو الإشارات (أسماء الإشارة، والضمان، وأداة التعريف، وأدوات التملك..)، والزمان، والمكان، والصيغ العاطفية والانفعالية، وأحكام التقويم، وتعابير الجهة (جهة الضرورة والإمكان، وجهة المعرفة، وجهة الفعل، وجهة الكينونة والظهور).

ثانياً، تيار فلاسفة أكسفورد بما فيهم أوستين، وسورل، وكرايس... فقد اهتموا بنظرية أفعال الكلام، بمعنى أن الفعل الكلامي يؤدي إلى تحويل وضع المتلقي، وتغيير نظام معتقداته، وتبديل مواقفه السلوكية.

ويمكن الإشارة كذلك إلى بعض التيارات والنظريات التداولية الأخرى، كالنظرية التخاطبية، والنظرية التفاعلية، والنظرية الحجاجية، والنظرية التلفظية، ونظرية المقصدية، والنظرية التوليدية الوظيفية مع فان ديك، وهاليداي، ورقية حسن، وأحمد المتوكل...

ثالثاً، التيار السردى مع كريماس، وجوزيف كورتيس، وجماعة أنتروفيرن... رابعاً، المقاربة التأويلية مع بول ريكور الذي اهتم كثيراً بالإحالة السياقية؛ خامساً، مدرسة فرانكفورت التي اهتمت بدورها بالسياق التواصلية مع هابرماس...

المطلب الرابع: التداوليات والحجاج

من الطبيعي أن تكون التداوليات ذات طبيعة حجاجية بامتياز، مادامت تستند إلى ثنائية المتكلم والمتلقي. فضلاً عن عملية التلفظ نفسها التي ترتبط بالمقصدية من جهة، والسياق التداولي من جهة أخرى. بمعنى أن النص يتضمن، في طبيعته، أطاريح ورسائل ومعتقدات واقتناعات وقيماً وأهواء ومعارف متنوعة ومختلفة، يريد المتكلم أن يوصلها إلى المتلقي من أجل التأثير فيه أو إقناعه أو جعله يقتنع. وبهذا، تكون التداوليات حوارية من ناحية، وحجاجية من ناحية أخرى.

وللتداوليات مؤثرات إيجابية واضحة، إذا انعكست إيجاباً على المخاطب، ولها أيضاً مؤثرات سلبية، إذا كانت في غير صالح المتلقي. وبهذا، تكون التداوليات الحجاجية بمثابة تخاطب، أو تواصل، أو تفاعل، أو إحالة سياقية، أو حوار بين الطرفين: المتلفظ والسامع.

علاوة على ذلك، يتكـىء حجاج التداول على الروابط والعمليات الحجاجية، والاحتكام إلى القواعد الحجاجية المختلفة التي تسعف المتكلم في إنجاز عملية التخاطب التفاعلي، بمراعاة شروط التداول المتعددة التي تجمع بين المتكلم والمتلقي، والتشديد على السياق الوظيفي بأبعاده المختلفة، والتوقف عند أفعال الكلام، والاستعانة بالاقتضاء اللغوي تصرّيحاً، وتضميناً، وتلميحاً، بالانفتاح على السياق الموقعي والوظيفي من جهة، والاستلزام الإنجازي من جهة أخرى.

كما يركز حجاج التداول على الحوار، والجدل، والتفاوض، والاستدلال، والنقاش الحر، وتبادل الآراء، باستحضار مختلف الحجج والأدلة والبراهين والفرضيات، إما ضمن سياق دفاعي، وإما ضمن سياق انتقادي معارض. لذا، نتوقف، غالباً، عند ستة أقطاب رئيسة ضمن حجاج التداول هي: المتكلم، والملفوظ، والمتلقي، والسياق، وأنواع الحجج، والمقاصد المباشرة وغير المباشرة.

ومن هنا، يتسلح المتكلم / الخطيب بمجموعة من القيم والحجج المشتركة والإيتوس العام المتعارف عليه مجتمعياً في شكل أخلاق، وأعراف، وعادات، وتقاليد، ومعارف، وأعمال متوارثة من أجل تحضير خطابه الحجاجي وترتيبه وفق نسق استدلالي ومنطقي وجيه وسليم، مستعملاً في ذلك اللوغوس الحجاجي الصريح أو الضمني، في شكل استدلالات تداولية مقنعة، أو في شكل أسئلة تتحول إلى أجوبة والعكس صحيح، أو في شكل صور بلاغية مجازية تؤدي وظيفة حجاجية بامتياز.

وبعد التمكن من طرائق اللغة الحجاجية المختلفة والمتنوعة كما وكيفا ، يدخل المتكلم في تخاطب تداولي وحواري وحجاجي تناظري مع المتلقي من أجل الدفاع عن معتقداته واقتناعاته وإيديولوجياته وأهوائه الذاتية والموضوعية، أو العمل على تنفيذ دعاوى خصمه أو عدوه بالحجة، والدليل، والبرهان. ويعني هذا أن المتكلم ينطلق من مقصديات واضحة أو متوارية من أجل إيصالها وتبليغها إلى المتلقي عبر عمليات التأثير، والجدل، والإقناع، والتغليب، والاقتناع، والحوار، والتفاوض...، بمراعاة السياق والمقام الوظيفيين، واحترام تناسب المقام مع المقال الشفوي أو الكتابي ، والخضوع لميول المخاطب أو الجمهور الحاضر أو الغائب، سواء أكان خاصا أم عاما.

" وهكذا، حاولت التداولية أن تعالج الحجاج باعتباره فعلا تداوليا، لا يمكن تفسيره دون إبراز مراتب المتكلمين وأدوارهم في أفعال الكلام، وأهمية السياق التخاطبي، كما حاولت التداولية أن تقف عند الروابط الحجاجية باعتبارها أدوات تسهم في تحديد العلاقة الخطابية بين المتكلمين من جهة، وبين أطراف النص من جهة أخرى، وبالإضافة إلى ذلك اهتمت التداولية بالسلالم الحجاجية داخل المنطوقات والأقوال، لذلك نجد التحليل التداولي للحجاج قد اتخذ من النصوص وكيفية إنتاجها موضوعه المحوري، ويسعى هذا التحليل إلى الإسهام في تحديد قواعد ومعايير قراءة النصوص الحجاجية.¹¹"

إذاً، تكمن علاقة الحجاجي بالتداولي في المظاهر والعناصر التالية:

- ① الحجاج هو ، قبل كل شيء، فعل تداولي وظيفي وتخاطبي وذرائعي؛
- ② تركيز التداولية على أطراف التواصل من متكلم، وتلفظ، ومخاطب، مع التشديد على أهمية المتلقي الذي يستهدفه المحاج التداولي بالتأثير، والإقناع، والاقتناع، والجدل، والحوار؛
- ③ اهتمام التداولية بالروابط والعوامل الحجاجية؛

¹¹ - رضوان الرقبي : البلاغة والحجاج: بحث في تداولية الخطاب، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى 2018م، ص:39.

- ④ سعي التداولية جادة نحو استجلاء مختلف القواعد الحجاجية التي تتحكم في الجمل والخطابات والنصوص ؛
- ⑤ استكشاف التداولية لمختلف أفعال الكلام في النصوص والخطابات والجمل والعبارات اللسانية؛
- ⑥ اهتمام التداولية بالسلام الحجاجية في دراسة النصوص والخطابات والجمل؛
- ⑦ تشديد التداولية والحجاجية على الحوارية بمختلف أنواعها؛
- ⑧ اهتمام التداولية والحجاج معا بالإحالة والذات والمرجع والسياق الوظيفي والمقامي والمقالي على حد سواء؛
- ⑨ عناية التداولية والحجاج معا بالمقاصد المباشرة وغير المباشرة؛
- ⑩ سعي التداولية والحجاجية معا إلى استجلاء صيغ التقرير والتضمين في النصوص والخطابات والجمل من جهة، باستكشاف ملامح التصريح والتلميح والاقتضاء فيها من جهة أخرى.

المطلب الخامس: التداوليات والنص الأدبي

لقد استفاد النص أو الخطاب الأدبي من مجموعة من المقاربات والنظريات والمناهج، ولاسيما بعد مرحلة مابعد الحداثة بين سنوات الستين والسبعين من القرن الماضي. ومن أهم هذه المقاربات التي انفتحت عليها الأدب بصفة عامة، والبلاغة بصفة خاصة، المقاربة التداولية بكل تياراتها الحجاجية، والمنطقية، واللغوية، والتخاطبية، والتداولية، والسياقية. ومن ثم، فثمة تصورات تداولية عدة حول النص والخطاب الأدبي تختلف من تيار إلى آخر، ومن تداولي إلى تداولي آخر.

إذاً، ما مجمل هذه التصورات التداولية التي استفاد منها النص الإبداعي بصفة خاصة، و الخطاب الأدبي والفني بصفة عامة؟ هذا ماسنعرفه بشكل جلي في المطالب الموالية.

الفرع الأول: النص الأدبي خطاب قبل كل شيء

إذا كانت اللسانيات تتعامل مع الجملة باعتبارها منطلقا للدراسة والتحليل، سواء أكان ذلك في ضوء البنيوية السوسيرية، أم في ضوء البنيوية الوظيفية، أم في ضوء الكلوسيماتيكية لهلمسليف، أم في ضوء التوزيعية (بلومفيلد، وهوكيت...)، أم في منظور التوليدية التحويلية مع نوام شومسكي، فإن المقاربة التداولية تتجاوز الجملة لدراسة الخطاب والنص، ولاسيما مع لسانيات النص واللسانيات الوظيفية كما عند فان ديك - مثلاً - في كتابه (النص والسياق) (1977م)¹²، وهاليداي وحسن رقية في كتابهما (الاتساق في اللغة الإنجليزية) (1976م). ويعني هذا أن التداوليات النصية قد تعاملت مع الخطاب باعتباره كلية عضوية متسقة ومنسجمة، بل اعتبرته جملة نصية كبرى، يمكن التعامل معها كالتعامل مع الجملة اللسانية. ونجد هذا هذا التصور كذلك عند إميل بنيفنست، وهاريس، ورومان جاكبسون، والسيميائيين (كريماص)، والتأويليين (بول ريكور)، وجمالية التلقي (ياوس وآيزر)...

وبناء على ماسبق، تتعامل التداولية مع النص الأدبي باعتباره خطابا وملفوظا لغويا ذا كلية عضوية، سواء أكان ذلك الخطاب شفويا أم كتابيا؛ حيث نربط ملفوظاته بالوظيفة، والسياق المقامي، والأداء الإنجازي؛ وندرس مكوناته التلفظية السياقية، وروابطه الحجاجية المنطقية وغير المنطقية؛ ونربطه أيضا بالحوارية، والمقصدية، والإحالة، والتفاعل، والتخاطب التداولي...

الفرع الثاني: النص الأدبي خطاب لغوي وظيفي

¹² - فان ديك: النص والسياق، ترجمة: عبد القادر قينيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 1999م.

يرى فرديناند دوسوسير، في كتابه (محاضرات في اللسانيات العامة) الذي نشره طلبته سنة 1916م، أن اللغة عبارة عن علامة، وتتكون هذه العلامة من الدال الصوتي والمدلول المعنوي، لكنه أبعد المرجع الحسي المادي، واحتفظ بما هو مجرد وصوري. ومن ثم، فقد كان يدرس اللغة لذاتها ومن أجل ذاتها. ويعني هذا أنه كان يركز على دراسة اللغة باعتبارها ملكة اجتماعية أساسية وثابتة، ويقصي الكلام باعتباره ظاهرة فردية متغيرة وهامشية. ويدل هذا كله على أن دوسوسور لم يهتم بالسياق المرجعي الوظيفي، بل اكتفى بالجانب الصوتي والمعنوي المرتبطين باللغة، ولم يهتم بالكلام والإنجاز القائمين على البعد المرجعي والإحالي والسياسي¹³.

ويساعدنا هذا كله على التعامل مع النص الأدبي باعتباره خطابا يحمل في طياته وظائف ومقاصد سياقية، وكل ما يوجد في النص يدل بشكل من الأشكال، ويحيل على أدوار تداولية ومقاصد مباشرة وغير مباشرة، فليس هناك في النص الأدبي ما هو مجاني وزائد، بل ترتبط الدلالة بالمعاني السياقية والرسائل الظاهرة والمضمرة. بمعنى أن لغة النص الأدبي وظيفية وتداولية، تحمل، في مظاهرها، أبعادا سياقية سياسية، واجتماعية، واقتصادية، وثقافية، وتاريخية، ونفسية، وجنسية، وعقائدية... أي: لم يعد النص الأدبي علامات وبنيات داخلية مغلقة، كما كانت تقول البنيوية اللسانية والسيمائيات النصية والخطابية، بل النص الأدبي بنية ودلالة وتركيب ووظيفة سياقية قبل كل شيء. لذا، لابد من مراعاة السياق والوظيفة في تحليل النصوص والخطابات الأدبية، ولاسيما الشعرية منها.

وعليه، " ليس النص الشعري- مثلا- لعب ألفاظ، وليس نقل تجربة ذاتية وحسب، وإنما يهدف، فوق ذلك كله، إلى الحث والتحريض. وبهذا المفهوم الأخير، تشمله نظرية: الكلام فعل، أو التداولية، وتعني هذه النظرية: أن

¹³ محمد الحناش: البنيوية في اللسانيات، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 1980م، ص: 189.

التحدث يقصد به تبادل الأخبار، وفي الوقت نفسه، يهدف إلى تغيير وضع المتلقي، وتغيير نظام معتقداته، أو تغيير موقفه السلوكي¹⁴.

كما يحدد القصد أو القصديّة أو المقصديّة "كيفية التعبير والغرض المتوخى، وهي البوصلة التي توجه تلك العناصر، وتجعلها تتضام وتتضافر وتتجه إلى مقصد عام. فالمقصديّة تحدد اختيار الوزن، والألفاظ الملائمة، وتركيبها بطرق معينة لتؤدي المعنى العام المتوخى. ولذلك، نجد البحر الواحد ينظم فيه الشاعر مدحا أو فخرا أو هجاء أو رثاء... فالمقصد يتحكم في نسج القصيدة أو المقطوعة، بل في البيت أو شطره مبنى ومعنى.¹⁵

وهكذا، لا توظف لغة النص الأدبي بشكل عشوائي وفوضوي، بل تزخر بمجموعة من الدلالات السياقية والتداولية والحجاجية إقناعا وتأثيرا. فكل ما في النص يدل ويحيل ويحمل وظائف سياقية متنوعة، سواء أكانت نصية داخلية أم مقامية خارجية.

الفرع الثالث: النص الأدبي إبلاغ تواصلي

ترى المقاربة التواصلية أن النص الأدبي يركز على مجموعة من الوظائف وأهمها الوظيفة التواصلية. وخير من يمثل هذا التيار التواصلية الذي يرى النص الأدبي إبلاغا وتواصلا اللساني الروسي رومان جاكبسون الذي تحدث، في مقاربته التواصلية الوظيفية، عن ستة عناصر في عملية التواصل: المرسل ووظيفته انفعالية، والمرسل إليه ووظيفته تأثيرية، والرسالة ووظيفتها جمالية، والمرجع ووظيفته مرجعية، والقناة ووظيفتها حفاظية وتواصلية، واللغة ووظيفتها وصفية تأويلية وتفسيرية. ولقد تأثر جاكبسون، في هذه الخطاطة التواصلية، بأعمال فرديناند دوسوسير، وأعمال الفيلسوف المنطقي اللغوي جون أوسطين.

¹⁴ - محمد مفتاح: في سيمياء الشعر القديم، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 1989م، ص: 55.

¹⁵ - محمد مفتاح: في سيمياء الشعر القديم، ص: 53.

وهناك من يزيد الوظيفة السابعة للخطاب اللساني، وهي الوظيفة الأيقونية كما عند السيميائي ترنس هوكس بعد ظهور كتابات جاك دريدا ، وانبثاق السيميوطيقا التواصلية. كما يضيف عبد الله الغدامي الوظيفة الثقافية في إطار النقد الثقافي الذي يدافع عنه عربيا. أما هاليداي التداولي، فيركز على ثلاث وظائف للغة:

أولا، الوظيفة التمثيلية التي تعني الإحالة على العالم الداخلي والخارجي للذات المتكلمة؛

ثانيا، الوظيفة التعالقية التي تعني اتخاذ دور من الأدوار الاجتماعية بالنسبة للمخاطب كدور المخبر، ودور السائل، ودور الأمر؛

ثالثا، الوظيفة النصية التي تتمثل في تنظيم الخطاب حسب مقتضيات مقام إنجازه.

وهذه الوظائف الثلاث مستقلة، على الرغم من كونها تصب كلها في وظيفة واحدة هي وظيفة التواصل.

وتأسيسا على ماسبق، يصنف فان ديك المعلومات إلى ثلاثة أقسام:

أولا، معلومات عامة ترتبط بالعالم، أو بأي عالم ممكن؛

ثانيا، المعلومات الموقفية التي ترتبط بما يتضمنه الموقف الذي يتم فيه التواصل؛

ثالثا، المعلومات السياقية المستقاة من الخطاب المتبادل سلفا بين الشخصين المتواصلين.

ومن هنا، " يتم تغيير المعلومات التداولية إما بالنظر إلى العلاقة القائمة بين المتكلم والمخاطب (تواصل علاقي)، أو بالنظر في فحوى الخطاب ذاته. في هذه الحالة الثانية، يكون القصد من الخطاب حمل المخاطب على القيام بفعل ما (تواصل توجيهي)، سواء أكان الفعل المطلوب عملا (تواصل أمري) ، أم

قولا (تواصل استفهامي)، كما يكون القصد منه الإخبار عن شيء (تواصل إخباري)، أو التعبير عن إحساس (تواصل تعبيري)، أو استثارة إحساس (تواصل استثنائي).¹⁶

ويذكر كارل بوبر (Popper) أربع وظائف أساسية للغة الإنسانية ، ويمكن حصرها فيما يلي:

① الوظيفة التعبيرية التي تعني تعبير الشخص عن حالته الداخلية؛

② الوظيفة الإشارية التي تتمثل في تبليغ الشخص الآخرين بمعلومات عن حالته الداخلية؛

③ الوظيفة الوصفية التي تكمن في وصف الشخص أشياء العالم الخارجي المحيط به ؛

④ الوظيفة الحجاجية القائمة على تقويم الحجج وتبريرها¹⁷ .

وعليه، إذا أردنا - مثلا- دراسة عنوان نص أو خطاب ما في ضوء تواصلية رومان جاكبسون، فالعنوان كما هو - معلوم - عبارة عن رسالة ، وهذه الرسالة يتبادلها المرسل و المرسل إليه ، فيسهمان في التواصل المعرفي و الجمالي، وهذه الرسالة مسننة بشفرة لغوية، يفككها المستقبل، ويؤولها بلغته الواصفة، وهذه الرسالة - ذات الوظيفة الشاعرية أو الجمالية- ترسل عبر قناة وظيفتها الحفاظ على الاتصال.

وفي هذا الصدد، يمكن الاستفادة من وظائف اللغة كما أرساها رومان جاكبسون (R.Jacobson). فللعنوان وظيفة مرجعية تركز على موضوع الرسالة باعتباره مرجعا وواقعا أساسيا تعبر عنه الرسالة. وهذه الوظيفة موضوعية لا وجود للذاتية فيها نظرا لوجود الملاحظة الواقعية، والنقل الصحيح، والانعكاس المباشر.

¹⁶ - أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية، ص: 55-56.

¹⁷ - انظر: عبد الهادي بن ظافر الهشري: إستراتيجية الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ، سنة 2004م، ص: 14.

وهناك الوظيفة الانفعالية التعبيرية التي تحدد العلائق الموجودة بين المرسل والرسالة. وتحمل هذه الوظيفة، في طياتها، انفعالات ذاتية، وتتضمن قيما ومواقف عاطفية و مشاعر وإحساسات، يسقطها المتكلم على موضوع الرسالة المرجعي.

وهناك أيضا الوظيفة التأثيرية التي تقوم على تحديد العلاقات الموجودة بين المرسل والمتلقي؛ حيث يحرض المتكلم المتلقي، ويثير انتباهه، ويوقظ ذهنه ومشاعره وأحاسيسه بالترغيب و الترهيب، وهذه الوظيفة ذاتية.

وهناك الوظيفة الجمالية أو الشعرية التي تحدد العلائق الموجودة بين الرسالة و ذاتها، وتتحقق هذه الوظيفة في أثناء إسقاط المحور الاختياري على المحور التركيبي، وكذلك عندما يتحقق الانتهاك والانزياح المقصود. وتتسم هذه الوظيفة بالبعد الفني والجمالي الاتصالية للقناة العنوانية؛ إذ تهدف هذه الوظيفة إلى تأكيد التواصل، واستمرارية الإبلاغ، وتثبيتته أو إيقافه، والحفاظ على نبرة الحديث والكلام المتبادل بين الطرفين.

علاوة على الوظيفة الوصفية المتعلقة باللغة، وتهدف هذه الوظيفة إلى تفكيك الشفرة اللغوية بعد تسنينها من قبل المرسل. والهدف من السنن هو وصف الرسالة لغويا وتأويلها، مع الاستعانة بالمعجم أو القواعد اللغوية و النحوية المشتركة بين المتكلم و المرسل إليه.

ونضيف الوظيفة البصرية أو الأيقونية كما عند ترنس هوكس¹⁸ التي تهدف إلى تفسير دلالة الأشكال البصرية والألوان والخطوط الأيقونية بغية البحث عن المماثلة أو المشابهة بين العلامات البصرية ومرجعها الإحالي.

ومن باب التنبيه، لابد من الاحتكام في تحليل النص أو الخطاب إلى القيمة المهيمنة (La valeur dominante)، كما حددها رومان جاكبسون؛ لأن العنوان في نص ما قد تغلب عليه وظيفة معينة دون أخرى، فكل الوظائف

¹⁸ - ترنس هوكس: (مدخل إلى السيمياء) ، مجلة بيت الحكمة، المغرب، العدد 5، السنة الثانية، سنة 1987م، ص:120؛

التي حددناها سالفاً متمازجة؛ فقد نعاينها مختلطة بنسب متفاوتة في رسالة واحدة؛ حيث تكون الوظيفة الواحدة منها غالبية على الوظائف الأخرى حسب نمط الاتصال .

الفرع الرابع: النص الأدبي تخاطب وتبادل

لقد جاءت النظرية التخاطبية تطويراً للنظرية التواصلية الإبلاغية التي عجزت عن تفسير مجموعة من القضايا اللغوية بشكل جيد؛ لأنها كانت تتعامل مع التخاطب في معزل عن سياقها الفعلي والإنجازي. ويعني هذا أن " الدراسات التخاطبية تعد امتداداً ، واستكمالاً لجهود المدرسة الوظيفية، وتأتي هذه الدراسات نتيجة طبيعة لشعور المهتمين بها بإخفاق النموذج التقليدي للتخاطب في تقديم تفسير ناجح لعملية التخاطب. ويمكن تلخيص أوجه الإخفاق فيه في كونه يتعامل مع التخاطب في عزلة عن السياقات الفعلية التي تستخدم فيها اللغة، ويصبغ عملية التخاطب بطابع مثالي تتجاهل فيه قضايا اللبس، والخروج عن المواضع اللغوية، وقصر وظائف اللغة على عملية الإبلاغ، وإهمال الأصول التخاطبية المفسرة لمقاصد المتكلمين".¹⁹

وتذهب النظرية التخاطبية إلى أن النص الأدبي تخاطب وتداول يجمع بين أطراف ثلاثة هي:

أولاً، المرسل المتكلم الذي قد يكون كاتباً أو مؤلفاً أو سارداً أو شخيسة ؛
ثانياً، المرسل إليه الذي قد يكون شخصاً مخاطباً، كأن يكون قارئاً أو متلقياً أو شخصية مقابلة للشخصية المتكلمة.

ثالثاً، الخطاب التداولي أو الرسالة المرسلة.

وبهذا، تكون هذه النظرية قد مهدت لميلاد القارئ أو المتلقي أو المستقبل. وتكون ، من جهة أخرى، قد أعطت نقطة انطلاق للنظريات التي تعنى بالقارئ المستقبل، كجمالية التلقي ليوس وآيزر، وغيرها من النظريات.

¹⁹ - محمد محمد يونس علي: مدخل إلى اللسانيات، ص: 98.

وهكذا، تستوجب النظرية التخاطبية وجود ثلاثة أطراف على النحو التالي:
أولاً، المرسل الذي يتمثل في الباث، والمتكلم، والمتلفظ، والمرسل،
والمتحدث، والمبدع؛

ثانياً، الرسالة التي تكمن في النص، والأدب، والخطاب، و التلفظ...؛

ثالثاً، المتلقي الذي يحيل على القارئ، والمرسل إليه، والمستقبل، والمتلفظ
إليه، والراصد.

ومن ثم، فالباث أو المرسل هو الذي يسنن رسالة ما، سواء أكانت ذهنية أم
وجدانية، ليرسلها إلى المتلقي ليفككها في ضوء سنن مشترك أو لغة يعرفها كل
من المرسل والمرسل إليه. وفي هذا النطاق، يقول الباحث التونسي حسين
الواد: "لقد اعتنت نظرية التخاطب، على وجه الخصوص، بمرور البلاغ من
الباث إلى المستقبل عبر قنوات الاتصال، ورأت أن الباث يسجل بلاغه في الكلام
حسب قواعد في التسجيل تواضع عليها الناس، وأن المستقبل يعتمد إلى فك رموز
الكلام ليحصل على البلاغ منها. إلا أن إيصال البلاغ، في الغالب، مغامرة لا تتم
دائماً بسلام. فمهما بذل الباث من جهد في تفادي عناصر التضليل والتحريف
وسوء الفهم، فإن بلاغه لابد من أن يتأثر بها. ولقد كان لهذه النظرية أثر بارز
في درس الآثار الأدبية، إذ عمدت طائفة من الباحثين إلى جعل المؤلف باثاً
والقارئ متقبلاً والأثر يحمل بلاغاً. إلا أنهم رأوا التخاطب في الأدب يختلف
كثيراً عن التخاطب العادي، فمنتهى أمل الباث في التخاطب العادي أن يصل
بلاغه سالماً من العثرات إلى المستقبل. والذي يساعده على ذلك ارتباط البلاغ
عادة بالمرجع أو السياق يحضر القارئ أثناء القراءة، فيتجنب به الوقوع في
الخطأ. إن الخطاب العادي يقوم في أساسه على الوظيفة المرجعية. أما التخاطب
الجمالي في الآثار الأدبية فلا وظيفة مرجعية له. وبالتالي، فإن العثرات فيه
كثيرة والعقبات كأداء. ومن هنا، حلت فيه الوظيفة الأدبية محل الوظيفة

المرجعية في التخاطب العادي. لذلك، كان الغموض في الأثر الأدبي، وكان التفاف الكلام فيه على نفسه أشد ما يكون.²⁰

وإذا كانت الملفوظات التخاطبية العادية لا تثير مشاكل على مستوى التداول والتواصل والتخاطب، فإن النص الأدبي، باعتباره ظاهرة تخاطبية بين المتكلم والمخاطب، يثير عدة صعوبات بسبب الغموض، والانزياح، والتضمن، والتلميح، والترميز، والأسطورة. لذا، فعلى المتلقي أن يبذل مجهودا لفك الخطاب الأدبي عبر عملية التأويل، وفك الرموز. وفي هذا النطاق، يقول حسين الواد مرة أخرى: "والمهم في نظرية التخاطب أنها أسلمت الآخذين بها إلى الإقرار بالغموض في الآثار الأدبية ميزة من طبيعتها. ولأن التخاطب في الأدب غامض، ولأن الغموض ظاهرة ملازمة له، توقع الباث (أي الأديب) من القارئ أن يقوم بالتأويل أثناء القراءة، وانتظر منه أن يثري البلاغ الأدبي بإضافات شخصية من عنده يسلطها عليه. ولأن التخاطب الأدبي غامض في أساسه، عمد القارئ، كلما واجه نصا أدبيا، إلى امتحانه، فاختر قدراته على تحمل المعاني الإضافية بموجب ماركب فيه من مواطن غامضة تتحمل التأويل. ومن هنا، كان الأثر الأدبي، في نظرية التخاطب، أثرا مفتوحا يستدعي التأويلات العديدة، ويتقبلها، فيزداد بها ثراء على ثرائه."²¹

وينبني التخاطب بين أطراف التكلم على مجموعة من مبادئ المحادثة والتخاطب، وقد جمعها فيلسوف اللغة الأمريكي بول كرايس هربرت (Paul Grice Herber) في قاعدة التعاون الذي يقتضي أن المتكلمين متعاونون في تسهيل عملية التكلم والتخاطب. وتتفرع قاعدة التعاون إلى مجموعة من المبادئ منها:

²⁰ - حسين الواد: في مناهج الدراسات الأدبية، منشورات الجامعة، المغرب، الطبعة الثانية، سنة 1985م، ص: 74-75.

²¹ - حسين الواد: نفسه، ص: 74-75.

- 1- **مبدأ الكم:** تكلم على قدر الحاجة فقط، ولا تتجاوز بإفادتك القدر المطلوب. ويعني هذا الابتعاد عن الاستقصاء المفصل، وتفادي الإطناب والاستطراد في الكلام أو التخاطب.
 - 2- **مبدأ الكيف:** لاتقل ما تعتقد كذبه، ولا تقل ما يعوزك فيه دليل بين. ويسمى هذا المبدأ أيضا بمبدأ الصدق.
 - 3- **مبدأ الأسلوب:** تجنب إيهام التعبير، وتجنب اللبس، وأوجز كلامك، بحيث تتجنب الإطناب الزائد، وليكن كلامك أيضا كلاما مرتبا.
 - 4- **مبدأ المناسبة:** ليكن كلامك مناسبا لسياق الحال، فالكلام هو مراعاة مقتضى الحال، أو مناسبة المقال للمقام.²²
- بيد أن نظرية كرايس قد خضعت لنوع من التطوير، والتعديل، والنقصان، والإضافة؛ "بفضل جهود باحثين في مجال علم التخاطب، ومن بينهم هارنيش (Harnish) الذي أضاف بعض التعديلات منها: الجمع بين مبدأي الكم والكيف، وصادوك (Sadock) الذي أشار إلى إمكان تقليص بعض مبادئ كرايس، وأبرز بعض الثغرات في معيار الإبطال الذي صممه كرايس لاكتشاف المفاهيم الخطابية المولدة نتيجة انتهاك أحد مبادئ المحادثة المشار إليها سابقا. وتمكن صادوك من إضافة معايير أخرى لاختبار تلك المفاهيم، غير أن أقوى التحديات جاءت من ويلسون (Wilson) وسبيرير (Sperber) اللذين شككا في مبادئ كرايس، واستثنيا من ذلك مبدأ المناسبة الذي جعل منه أساسا لنظرية سميها بنظرية المناسبة.²³

ويعني هذا كله أن الناقد التداولي يمكن أن يتعامل مع النص الأدبي، أو الخطاب الإبداعي، باعتباره بنية تخاطبية وتبادلية بين طرفين ضمن سياق عام، أو سياق موقعي، أو سياق نصي، بتحديد نوع التخاطب والتبادل التداولي.

الفرع الخامس: النص الأدبي تلفظ في سياق

²² - See H.Grice. (Logic and conversation), In Steven David (ed), **Pragmatics**: A reader, New York, Oxford University press, 1991, pp: 305-315.

²³ - محمد محمد يونس علي: نفسه، ص: 100.

تهدف المقاربة التلفظية إلى دراسة الخطاب الإبداعي والأدبي في ضوء المعينات الإشارية، أو قراءتها بواسطة القرائن اللغوية، أو مقاربتها عبر المؤشرات التلفظية التي تحدد سياق الملفوظ اللغوي واللساني. وهذه المعينات هي ضمائر الشخوص، وأسماء الإشارة، وظروف المكان والزمان، وصيغ القرابة، والصيغ الانفعالية الذاتية. ومن ثم، تتبنى المقاربة القرائنية أو المقاربة "التلفظية" على دراسة سياق التلفظ، وتحديد أطراف التواصل اللغوي، بالتركيز على ثلاثة مبادئ منهجية هي: البنية، والدلالة، والوظيفة. وتمتص هذه المقاربة القرائنية أو الإشارية مختلف آلياتها من اللسانيات الخارجية ذات البعد المرجعي، بالانفتاح، بشكل من الأشكال، على التداوليات والسيميوطيقا النصية والخطابية.

وتطلق عدة مصطلحات ومفاهيم على المعينات (déictiques) في الدراسات الغربية من بينها : القرائن المدجمة أو الواصلة (Embrayeurs) كما عند رومان جاكبسون (Roman Jakobson)، أو الوحدة الإشارية (Index) عند شارل بيرس (Peirce)، أو التعبير الإشاري كما لدى بار هيليل (Bar-Hillel)، أو المؤشر (indicateur)، أو دليل التلفظ (indice de l'énonciation)، أو القرائن الإشارية (schifters) باللغة الإنجليزية... وغالبا، ما يستعمل مصطلح المعينات (déictiques) مرادفا لمصطلح الواصل (Embrayeurs)، على الرغم من كون المعينات مصطلحا عاما له دلالات خاصة وتمييزة عن مصطلح الواصل المرتبط بالسياق فقط؛ لأن مصطلح المعينات أو الإشارات يشمل أطراف التلفظ، والسياق التواصلية للمتكلمين. كما يرتبط بالاستعمال الشفوي والتلفظي للخطاب، بتشغيل الحركات والإشارات وإيماءات التعيين، وتوظيف وحدات التأشير الدالة على التعيين المكاني والزمني.

ومن المعلوم أن كلمة المعينات (déictiques) جمع لكلمة مفردة هي المعين الإشاري (déictique). ومن ثم، لا تأخذ هذه المعينات والقرائن الإشارية معناها، بما فيها: الضمائر، وأسماء الإشارة، وظروف الزمان والمكان،

والصيغ الانفعالية، وأسماء القرابة... إلا داخل سياق التلفظ ، والتواصل، وفعل القول.

ويراد بالمعينات (déictiques) - لغة - الإشارة، والتحديد، والتعيين، والعرض، والتمثيل، والتبيين، والتأشير، وهو مشتق من كلمة "ديكتيكوس/deiktikos" اليونانية. ويراد به - اصطلاحاً - مجموعة من المرجعيات الإحالية المبنية على شروط التلفظ الخاصة وظروفه، كهوية المتكلم، ومكان التلفظ وزمانه (أنا- الآن-هنا). ويعني هذا أن كل ملفوظ يتكون من مرسل، ومستقبل، ومكان التلفظ وزمانه. وهذه المؤشرات السياقية هي التي تسمى بالمعينات أو القرائن السياقية.

وبتعبير آخر، المعينات هي مجموعة من العناصر اللسانية التي تحيل على السياق المكاني والزمني لعملية التلفظ الجارية بين المتكلمين أو المتحدثين أو المتلفظين.

إذاً، يقصد بالمعينات أو القرائن الإشارية تلك الكلمات أو التعبيرات أو الروابط أو الوحدات اللغوية التي ترد في ملفوظ كتابي أو شفوي، تحدد الظروف الخاصة للتلفظ، وتبين الشروط المميزة لفعل القول ضمن سياق تواصل معين. ومن ثم، لا يتحدد مرجع هذه القرائن والمعينات الإشارية دلالياً وإحالياً إلا بوجود المتكلمين في وضعية التلفظ والتواصل المتبادل.

وتحيل المعينات على أطراف التواصل، من: متكلم ومستقبل، ومرسل ومرسل إليه. بالإضافة إلى الضمائر المنفصلة والمتصلة (أنا-أنت-نحن-أنتم...)، وأدوات التملك المتعلقة بضمير المتكلم وضمير المخاطب (كتابي، كتابك، كتابنا، كتابكم...)، وأسماء الإشارة (هذا-هذه-ذلك-تلك...)، وظروف الزمان والمكان (هنا-هناك-اليوم-الآن-البارحة-في يومين، هذا الصباح، إلخ...)، فضلاً عن كل المؤشرات اللغوية التي تعين الشخص والأشياء من قبل المتكلم.

ومن هنا، فالمعينات هي وحدات التلفظ ومؤشراته التي تسهم في تحيين فعل التلفظ إنجازاً، وقولاً، وفعلًا. وتتحقق بالضمائر، وأسماء الإشارة، وظروف المكان والزمان. ومن ثم، تعنى المعينات بتحديد مرجع الوحدات اللغوية عند عملية التلفظ والتواصل. ويحيل هذا المرجع على واقعية لسانية خارجية تسيج علاقة الدال بالمدلول. ومن ثم، لا يمكن أن يتحقق معنى الشيء، وتتعين هويته، إلا بمعرفة ظروف التواصل وشروطه المميزة.

وإذا أخذنا ، على سبيل المثال، هذا الملفوظ اللغوي: "سأذهب لأنام"، إذا كنا نعرف أن أحمد هو الذي قال هذه الجملة، فضمير المتكلم يعود عليه إحالة وسياقا ومقاما. أي: إن ضمير المتكلم هو أحمد. وإذا لم نكن نعرف متلفظ هذه الجملة، فإننا لن نعرف بتاتا على من يعود ضمير المتكلم. وهكذا، يتبين لنا، أن الضمائر تتحدد دلالة وإحالة ومرجعا بوجود أطراف التلفظ والتواصل.

ويرى إميل بنيفنست (Émile Benveniste)، في كتابه (قضايا اللسانيات العامة)، أن المعينات تحدد اللحظة المكانية والزمانية الآنية في أثناء لحظة التلفظ بضمير التكلم²⁴.

وإذا تأملنا هذه الجملة على سبيل المثال: "أسماء قالت: سأسافر هناك غدا"، فأسماء مكون اسمي يحيل على المتكلم، لكنه ليس معينا؛ لأن المكون الاسمي لا يشكل معينا إشاريا. في حين، يحيل ضمير المتكلم على المتكلم "أسماء"، وتحيل كلمة "هناك" على سياق تواصل مكاني، بينما تحيل كلمة "غدا" على سياق تواصل زمني. ومن هنا، لابد من استحضار السياق المكاني والزمني والشخصي لتحديد المعينات والمؤشرات اللغوية. ومن هنا، يستلزم الحديث عن المعينات وجود أطراف التواصل، وفعل التلفظ، والمعينات، ووجود السياق.

²⁴ - Émile Benveniste: Problèmes de linguistique générale 1, ED, Gallimard, Paris, 1966, p.253.

أطراف التواصل	فعل التلفظ	المعينات	السياق
المرسل والمرسل إليه، أو المتكلم والمستقبل.	الملفوظات والعبارات والجماليات والكلمات المكتوبة أو الشفوية.	الوحدات اللغوية من ضمائر، وأسماء الإشارة، وأدوات التملك، وظروف المكان والزمان.	- السياق التواصلية الذي يتكون من سياقات فرعية، كالسياق الشخصي، والسياق المكاني، والسياق الزمني.

ودائماً، ترتبط المعينات ، في علاقة جدلية، بلحظات الخطاب الفورية والآنية لفعل القول، وتتعلق كذلك بلحظات فعل التلفظ (le discours direct)، لكن حينما يتحول الخطاب أو الحوار المباشر إلى سرد أو حكي (le récit)، أو يتخذ صيغة الكلام المنقول (le discours indirect). فهنا، لا يمكن الحديث عن المعينات. وللتوضيح أكثر، حينما يكون هناك حوار مباشر يكون الحديث - بطبيعة الحال - عن المعينات كما في هذا المثال:

" - أسماء: سأسافر غدا إلى مراكش.

- لمياء: أنا سأسافر معك غدا هناك إذا وافق والدي."

نلاحظ في هذا الحوار أو الخطاب المباشر مجموعة من المعينات المتعلقة بأطراف التواصل (أسماء ولمياء)، ووجود ضمائر الشخص (ضمير التكلم)، ومعينات المكان (هناك)، ومعينات الزمان (غدا). في حين، إذا حولنا هاتين الجملتين الحواريتين إلى سرد محكي أو خطاب منقول، فلا يمكن إطلاقاً الحديث عن المعينات الإشارية؛ لأن المعينات تختفي حينما تتحول إلى وحدات لغوية في لحظة الغياب ، ولاتشير إطلاقاً إلى لحظة التكلم والقول والتلفظ:

" قالت أسماء بأنها ستسافر إلى مراكش، وردت عليها لمياء بأنها ستفعل مثلها إذا وافق والدها".

ونستخلص من هذا أن المعينات قد تظهر حضوريا مع الحوار الداخلي (المنولوج) والحوار المباشر (الديالوج)، وتختفي غيابيا مع الخطاب المنقول أو المحكي السردي.

وهكذا، فالمعينات هي الوحدات اللسانية التي لها وظيفة دلالية ومرجعية، وهذه الوحدات اللسانية هي مجموعة من العناصر التكوينية لوضعية التواصل. وتتضمن المعينات أو التعبيرات الإشارية (déictiques)، في المنظور اللساني واللغوي الحديث، كل ما يحيل على وضعيات التكلم والتخاطب والتواصل والتبليغ والتبادل بين المتكلم والمخاطب. وترتبط المعينات الإشارية بـ:

- الدور الذي يقوم به عاملو القول في عملية التلفظ.

- الوضع المكاني- الزماني للمتكلم والمخاطب على حد سواء²⁵.

ويعني هذا أن المعينات هي التي تتضمن إحالة خاصة ومتميزة، وهذه الإحالة قد تكون مطلقة عامة، أو إحالة سياقية خاصة، أو إحالة إشارية تعيينية. وللتوضيح أكثر نورد هذه الأمثلة :

◆ يقطن أحمد مدينة الرباط.(إحالة مطلقة).

◆ يسكن علي في جنوب الرباط .(إحالة سياقية)

◆ يقطن علي هنا .(إحالة إشارية أو تعيينية)

◆ سيسافر علي في 24 من شهر دجنبر.(إحالة مطلقة)

◆ سيسافر علي أمسية العيد.(إحالة سياقية)

²⁵ -C.K.Orecchioni: L'énonciation de la subjectivité dans le langage, Paris, Armand Colin, 1980, p:36;

◆ سيسافر علي غدا. (إحالة إشارية أو تعيينية)

وثمة مجموعة من الدارسين الغربيين الذين اهتموا بالمعينات والقرائن الإشارية في ضوء مقاربات متنوعة: نفسية، واجتماعية، وأنثروبولوجية، وبلاغية، وأسلوبية، ولسانية، وسيميائية، وتداولية...، منهم: إميل بنيفنست في كتابه (قضايا اللسانيات العامة)²⁶، وكاترين كيربرا أوريكشيوني في كتابها (ملفوظ الذاتية في اللغة)²⁷، وكريماص في كتابه (موباسان: سيميوطيقا النص: تمارين تطبيقية)²⁸، وفيليب هامون في كتابه (سيميولوجية الشخصيات)²⁹، وتزيتيفان تودوروف في كتابه (الشعرية)³⁰، إلى جانب بول ريكور (Paul Ricoeur³¹)، ورومان جاكسون³²، وييسبيرسين (Jesperse n)، وكلود ليفي شتراوس³³، وفينريش (Weinrich³⁴)، وجان بياجي (Jean Piajet)، وشارل بالي (Bally³⁵)، وشارل فيلمور (Fillmore³⁶)، وفونديرليش (Wunderlich³⁷)، وآخرين...

²⁶ - Benveniste, E: Problèmes de linguistique générale2, ED, Gallimard, Paris, 1974.

²⁷- C.K.Orecchioni: L'énonciation de la subjectivité dans le langage, Paris, Armand Colin, 1980.

²⁸ -Greimas: Maupassant, la sémiotique du texte: exercices pratiques, éditions du Seuil, Paris 1976, p:8-263.

²⁹ - فيليب هامون: سيميولوجية الشخصيات، ترجمة: سعيد بنكراد، دار الكلام، الرباط، الطبعة الأولى سنة 1990م.

³⁰ - تزيطان تودوروف: الشعرية، ترجمة: شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى سنة 1987م.

³¹ - Paul Ricoer: La métaphore vive. Seuil, Paris, 1975, p.98.

³² - R.Jakobson: Essais de linguistique générale, Minuit, Paris, 1963.

³³ - Levi-Strauss: Anthropologie structurale, Plon, Paris, 1958.

³⁴ - Weinrich Harold: Le temps, Seuil, Paris, 1973.

³⁵ - Bally:(Les notions grammaticales d'absolu et de relief), In: essais sur le langage, Minuit, Paris, 1969, pp:189-204.

³⁶ - Fillmore :(Deictic categories in the semantics of come), Foundations of language 2, 1966, pp: 219-227.

³⁷ - Wunderlich, Dieter: (Pragmatique, situation d'énonciation et deixis), Langages, 26, juin 1972, pp:34-58.

ومن الدارسين العرب الذين اهتموا بالمعينات الإشارية محمد مفتاح في كتابيه (في سيمياء الشعر القديم)³⁸ و (تحليل الخطاب الشعري)³⁹، وعبد المجيد نوسي في كتابه (التحليل السيميائي للخطاب الروائي)⁴⁰، ...

وبناء على ماسبق، يقصد بالمعينات أسماء الإشارة، والضمائر المتصلة والمنفصلة، وظروف الزمان والمكان. وبتعبير آخر، ما يشكل صيغة: أنا، الآن، هنا. كما يمكن الحديث أيضا عن ألفاظ القرابة (أبي وأمي وخالي...)، وصيغ الانفعال والتعجب، وآليات الحكم والتقويم الذاتي.

ويمكن الحديث بصفة عامة عن معينات المتكلم أو المتلفظ، ومعينات المستقبل أو المخاطب أو المرسل إليه أو المتلفظ إليه. فمن المعروف أن ضمير المتكلم يحدد هوية المتكلم، ويعين حضوره ووجوده سياقيا ومرجعيا حين عملية التلفظ والتواصل. ويتحدد ضمير المتكلم في صيغة المفرد "أنا"، أو صيغة الجمع "نحن" عبر الطرائق التالية:

◆ استعمال الضمائر المنفصلة: "غدا، سأسافر."، و "غدا سنسافر".

◆ الضمائر المتصلة المرتبطة بالفعل: "خرجت مبكرا"، و "ذهبنا هناك مسرعين".

◆ أدوات التملك: "كتابي"، و "كتابنا".

◆ صيغ العلاقة والقرابة والتفاعل الوجداني المرتبطة ضمنيا بضمير المتكلم: "التقيت بصديق"، و "هاتفني الجد"، و "الرضيع مريض"، وتحيل هذه الملفوظات الضمنية على الجمل التالية: "التقيت بصديقي"، و "هاتفني جدي"، و "رضيعنا مريض".

³⁸ - محمد مفتاح: في سيمياء الشعر القديم، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى سنة 1989م.

³⁹ - محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري، ص: 151.

⁴⁰ - عبد المجيد نوسي: التحليل السيميائي للخطاب الروائي، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2002م.

♦ صيغ الأمر والاستفهام والتوبيخ: " اخبرني. كم الساعة؟ بدأ علي في البكاء".

♦ العلامات الدالة على عواطف المتلفظ وانفعالاته: وتسمى كذلك بموجهات الخطاب (modalisateurs du discours)؛ حيث تسمح للمتكلم أو المتلفظ بالتعبير عن أحاسيسه وعواطفه الوجدانية، وإصدار أحكامه التقويمية إيجاباً أو سلباً. وفي هذا السياق، يمكن الحديث عن الذاتية والموضوعية ، مثل:

- زرت فيلاه على شاطئ البحر.

- زرت كوخه على شاطئ البحر.

نستنتج ، من خلال هذين المثالين ، أن هناك تقويماً سلبياً قديماً (الكوخ)، وتقويماً إيجابياً حول مكان الإقامة (الفيلا).

وتسهم صيغة الافتراض في تأكيد الحضور الذاتي، مثل: " يمكن أن تكون أسماء مريضة"، أو استعمال صيغة الشك " لأعتقد ذلك!".

♦ صيغ الانفعال والتفجع والتحسر والتأثر والتعجب: " آه!", و " كم هو جميل هذا المكان!.."

♦ الموجهات: مثل " بدون شك"، و " حسب رأيي"، و " في منظوري"...

ومن جهة أخرى، يتحدد وجود المستقبل عبر الطرائق الشكلية التالية:

♦ ضمائر الخطاب: أنت، وأنتم، ونحن (أنا، وأنت)...

♦ الضمائر المتصلة بالفعل: كتبت - كتبتكم...

♦ ضمائر التملك: كتابك، كتابكم،...

♦ ألفاظ القرابة والعلاقات الحميمية : " صديق يريد رؤيتك"، " هاتفتم الأم

"، وذلك من أجل أن تقول: " صديقك يريد رؤيتك"، و "هاتفتم أمنا (أنا، وأنت)"

♦ صيغ الأمر والاستفهام والتوبيخ: " اسمع! أين هي النظارات؟ لمياء، سأذهب لأنام".

أما فيما يخص المعينات الفضائية، فنستحضر : هنا، هناك، ورائي، يساري، قربي،...

أما المعينات الزمانية، فهي: الآن، اليوم، غدا، البارحة، في هذا الشهر، في هذه اللحظة...

وفيما يتعلق بأسماء الإشارة، فنذكر: هذا، هذه، ذلك، تلك، هؤلاء، أولئك...

ويمكن الحديث كذلك عن أفعال الحركة والانتقال، مثل: جاء- ذهب- انطلق- سافر- ارتحل: "جاء سمير ليساعدني". أي: تشير إلى الوصول إلى منطقة التلفظ أو مغادرتها.

ويمكن اعتبار كذلك بعض الأزمنة الفعلية من بين المعينات كالحاضر: أشتغل، ألعب، تلعب...

ومن جهة أخرى، يمكن الحديث عن نوعين من المعينات والقارئ الإشارية، فمنها ما يتعلق بالعوامل أو أطراف التلفظ والقول (actants)، وهناك ما يتعلق بظروف التواصل والتلفظ والقول والكلام (circonstants). ومن ثم، تحليل معينات العوامل على المرسل والمرسل إليه، أو المتكلم والمستقبل، وتسمى بالمعينات الذاتية (embrayeurs subjectifs)، أو المعينات الشخصية أو الضمائية (embrayeurs personnels). أما المعينات الثانية، فتحيل على ظروف التلفظ وسياقه التواصل، ويمكن تقسيمها كذلك إلى معينات مكانية (embrayeurs spatiaux) أو معينات فضائية (embrayeurs spatiaux)، ومعينات زمانية (embrayeurs temporels).

أقسام المعينات		
المعينات الذاتية		المعينات السياقية
عوامل التلفظ:		المعينات المكانية أو المعينات الزمانية.

المرسل والمرسل إليه، أو المتكلم والمستقبل.	المعينات الفضائية.	
--	--------------------	--

علاوة على ذلك، تحمل المعينات والتعبيرات الإشارية، في طياتها، وظائف عدة، يمكن حصرها في الوظيفة المرجعية؛ حيث تحدد هذه العناصر الخطابية، وهذه الوحدات اللسانية، سياق التواصل والتلفظ، سواء أكان سياقاً شخصياً، أم سياقاً مكانياً، أم سياقاً زمانياً. فلا يمكن دراسة المعنى دون تحديد المرجع. وفي هذا الصدد، تقول أوريكشيوني: "يستحيل في بعض الأحيان الوصف المناسب للأداء الكلامي دون الاهتمام بمحيطها غير الكلامي بشكل عام. لا يمكن دراسة المعنى دون تحديد صلته بالمرجع؛ ولا يمكن تحليل القدرة اللسانية بتفريغ القدرة الإيديولوجية التي تنتظم عليها، لا يمكننا وصف الإرسالية دون الاهتمام بالمقام الذي تأسس عليه، والنتائج التي تهدف إليها".⁴¹

كما تؤدي هذه المعينات والقرائن الإشارية وظيفة التعيين والتأشير، والتركيز على الإحالة المقامية والنصية، وتحديد الوضعية المكانية والزمانية، وتبيان المشار إليه قرباً وبعداً، وتأكيد وظيفة الحضور والغياب، والتنبيه إلى الوظيفة الذاتية والموضوعية، ورصد وظيفة الاندماج والاندماج، إلى جانب تحديد الوظائف الدلالية والمرجعية والتداولية واللسانية. ويعني هذا حسب بنفينست أن "الضمير ليس إلا شكلاً فارغاً، إذا كان خارج الخطاب الفعال، ولا يرتبط بأي موضوع أو مفهوم أو تصور".⁴²

ويرى بول ريكور أيضاً أن الضمائر "هي بالضبط لا دالة، الكلمة "أنا" ليست لها دلالة في ذاتها... "أنا" هو الذي، في جملة، يمكن أن ينطبق على نفسه أنا

⁴¹ - أريكشيوني: فعل القول من الذاتية في اللغة، ترجمة: محمد نظيف، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2007م، ص: 11.

⁴² - أريكشيوني: فعل القول من الذاتية في اللغة، ص: 54.

على أنه هو الذي يتكلم ؛ إذًا، الضمير هو أساسا اشتغال الخطاب، ولا يحمل معنى إلا حينما يتكلم شخص ويعين نفسه بقوله أنا.⁴³

وبتعبير آخر، إن للمعينات وظائف دلالية تتمثل في ارتباط القرائن الإشارية بالسياق المرجعي والمعنى الدلالي. كما تؤدي هذه المعينات وظيفة نفسية كما عند جان بياجي . ومن ثم، فهل "القرائن الإشارية تكتسب مبكرا أو بكيفية متأخرة من قبل الطفل؟ ولكن الآراء متعددة حول هاته النقطة: بالنسبة لبياجي القرائن الإشارية هي أكثر حضورا في الخطاب الطفولي؛ نظرا لارتباطها باستعمال أنوي ذاتي التمرکز للغة."⁴⁴

كما تؤدي هذه المعينات وظيفة أنثروبولوجية. وفي هذا السياق، يعلن كلود ليفي شتراوس، ضمن مقاربتة الأنثروبولوجية ، أن "في اللغات الهندوأوربية المصطلحات الدالة على القرابة منظمة في بعد ذاتي، على خلاف نظيرتها الصينية حيث يتعلق الأمر بنسق موضوعي كلياً؛ إذ علاقات القرابة تدرك عن طريق صلتها بالشخص، باعتبار أن الألفاظ تصير مبهمة جدا ونادرة لتتطبق على أقرباء بعيدين. إذًا، الأنساق الهندوأوربية أنساق ذاتية التمرکز وأنوية، معتبرة الأنا نقطة الانطلاق."⁴⁵

وقد تتخذ المعينات وظيفة بلاغية عندما تتجاوز التعيين والتقرير إلى الإيحاء والتضمين عبر عملية الانزياح والخرق، وانتهاك المعيار التقعيدي، بتصادم الوحدات اللغوية وتوترها، كما في الأمثلة التالية:

◆ " نحن الآن منذ ثلاثين مليون سنة " .هنا، ظرفان زمنيان (الآن/ ثلاثون مليون سنة) لا يشتغلان على النسق الاستدلالي نفسه، بل هناك تصادم دلالي بينهما على المستوى الزمني.

◆ " غدا ذهب القطار " ، يلاحظ أن الذي يتكلم يعيش نسقين زمنين مختلفين (الماضي/المستقبل).

⁴³ - أريكشيوني: نفسه، ص: 55.

⁴⁴ - أريكشيوني: نفسه، ص: 97.

⁴⁵ - أريكشيوني: نفسه، ص: 82.

كما يقع هذا الانزياح البلاغي على مستوى الزمن، يقع أيضا على مستوى الضمائر والفضاءات من أجل خلق أبعاد إيحائية، وفنية، وجمالية، واستعارية.

ومن وظائف المعينات الأخرى التمييز بين الأساليب والخطابات والأجناس الأدبية، كالتمييز - مثلا- بين الحوار والسرد، فالحوار يتميز بوجود المعينات الحضورية، مثل: أنا، أنت، أنتم، ونحن...، واستعمال زمن الحاضر، وتشغيل الصيغ الانفعالية، وتنويع التعبير إلى: استفهام، وتعجب، وتفجع.... في حين، يتميز السرد أو الحكى بغياب هذه المعينات، باستعمال الأفعال الماضية، وتشغيل ضمائر الغياب، مثل: هو، هي، هم، وهن، وخلوه من الصيغ الاستفهامية والانفعالية.

الفرع السادس: النص الأدبي أفعال كلامية

ليس النص الأدبي مجرد خطاب لتبادل الأخبار والأقوال والأحداث، بل يهدف، عبر مجموعة من الأقوال والأفعال الإنجازية، إلى تغيير وضع المتلقي، وتغيير نظام معتقداته، أو تغيير موقفه السلوكي وفق ثنائية: افعل ولا تفعل⁴⁶. ويعني هذا أن الخطاب أو النص الأدبي، في مفهوم التداوليات التحليلية التي ظهرت في سنوات الخمسين من القرن العشرين مع أوستين، كما في كتابه (نظرية أفعال الكلام) (1962م)⁴⁷، وسورل في كتابه (أفعال اللغة) (1969م)⁴⁸، عبارة عن أفعال كلامية تتجاوز الأقوال والملفوظات إلى الفعل الإنجازي والتأثير الذي يتركه ذلك الإنجاز.

ومن هنا، تتبنى نظرية الأفعال الكلامية على ثلاثة عناصر رئيسة هي:

أولا، **فعل القول**، ويراد به إطلاق ألفاظ في جمل مفيدة سليمة التركيب، وذات دلالة، تحمل، في طياتها، حمولات قضوية وإخبارية. ومن هنا، تشتمل على

⁴⁶ - Catherine kerbrat-Orrecchioni: Enonciation de la subjectivité dans le langage, Paris, Armond Colin, 1980, p: 181.

⁴⁷ - J.L.Austin: Quand dire, c'est faire, Editions du seuil, Paris, 1970.

⁴⁸ - John R.Searle: les actes de langage, Collection, savoir Herman, Paris, 1972.

مستوى صوتي، ومستوى تركيب، ومستوى دلالي، مثل: "أشكرك يا علي".
وثانيا، **الفعل المتضمن في القول**: وهو الفعل الإنجازي الذي يحدد الغرض المقصود بالقول كصيغة الأمر في هذه الجملة: "انتظري اللحن الجديد".
وثالثا، **الفعل الناتج عن القول**، وهو ما ينتج عن القول من آثار لدى المخاطب إثر فعل القول، كإقناع المخاطب، وحثه، وإرشاده، وتوجيهه، أو تضليله ...

وتحضر هذه المستويات الثلاثة للفعل الكلامي جميعها في الوقت ذاته، وبدرجة متفاوتة، هي التي تجعل هذا الفعل الكلامي كاملا.

علاوة على ذلك، يميز أوستين بين الجمل الخبرية والجمل الإنجازية، وتتنوع هذه الأقوال الإنجازية إلى أقوال ظاهرة وأقوال مضمرة. فالأقوال الإنجازية قد تكون لها قوة حرفية، مثل: الاستفهام، والتمني، والأمر... وقد تكون لها قوة إنجازية حوارية وسياقية، مثل: الالتماس، والإرشاد، والتهديد، والتحسر، ...

ويعني هذا كله أن الفعل الكلامي ينقسم إلى ثلاثة أنواع: فعل القول، والفعل المتضمن في القول، والفعل الناتج عن القول، وقد لا يدل الفعل المتضمن في القول على دلالاته المباشرة، بل يفيد معنى إنجازيا آخر غير مباشر يحدده سياق القول.

بتعبير آخر، للجملة اللسانية الواحدة ثلاثة مستويات، يمكن حصرها فيما يلي:

① **المحتوى القضوي**: وهو مجموع معاني مفردات الجملة؛

② **القوة الإنجازية الحرفية**: هي بمثابة قوة مدركة مقاليا ولفظيا؛

③ **القوة الإنجازية المستلزمة** التي تدرك مقاميا.

ويعني هذا أن أوستين يربط الأقوال بالأفعال، والمقال بالمقام. فأن نقول كلاما، يعني أننا ننجز فعلا. ومن هنا، تتكئ نظرية الأفعال الكلامية على **فعل القول** (قول شيء ما) الذي يتخذ مظهرا صوتيا، وتركيبيا، وداليا؛ **والفعل المتضمن في القول** (إنجاز فعل معين ضمن قول ما)، وقد يكون فعلا مباشرا أو غير مباشر؛ **والفعل الناتج عن القول** (الآثار المترتبة عن قول شيء ما). ويتميز

الفعل الكلامي بالمطابقة مع الواقع والسياق، والتعبير عن حالة نفسية، والقدرة على الإنجاز، واختلافه باختلاف منزلة المتكلم من المتلقي، والاختلاف في أسلوب الإنجاز، واختلاف القوة الإنجازية...⁴⁹

ويمكن تقسيم أفعال الكلام - حسب ما يقصد بها من أغراض إنجازية- إلى :

1- **التقريرات:** وتفيد تأكيد المتكلم وإقراره لبعض الوقائع والأحداث في الواقع الخارجي، مثل: "إنني كاتب، وناقد، وفيلسوف".

2- **الطلبات أو الأمرات:** وتحضر في توجيه المتكلم طلبا للمخاطب لإنجاز فعل ما، مثل: "هل سيسافر أحمد غدا؟"، و "اخرجوا كلكم من مدرج الكلية".

3- **البوحيات أو الإفصاحيات:** تعبر عن الحالة النفسية للمتكلم، مثل: "أحب أن أراك سعيدا"، و "مللت الانتظار".

4- **الوعديات:** تفيد التزام المتكلم بإنجاز فعل في الزمان المستقبل، مثل: "أعدك بسفر رائع إلى مصر".

5- **التصريحات:** ويقصد بها إعلان المتكلم عن إنجاز فعل يفيد تغييرا مرتقبا على مستوى العالم الخارجي، مثل: "أعلن أيها الحضور الكريم عن برنامجي الانتخابي قريبا".

وعليه، يعتمد الناقد ، في إطار المقاربة التداولية، في أثناء التعامل مع النص الأدبي إلى استخلاص الأفعال الكلامية، وتصنيفها إلى الأفعال القضوية، والأفعال الإنجازية الخبرية، والأفعال السياقية، وتصنيف الجمل الأدبية حسب سياقها ومقامها الوظيفي والتداولي والمقصدي.

الفرع السابع: النص الأدبي مقصدية

لقد اهتمت الدراسات التداولية، في بداية الأمر ، بالمتكلم باعتباره قوة عليا يمتلك سلطة متفوقة؛ إذ يوجه للمخاطب الذي يكون في مرتبة دنيا مجموعة من

⁴⁹ - راجع: جون أوستين: **نظرية أفعال الكلام العام**، ترجمة: عبد القادر قينيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2006م.

الأوامر لتنفيذها بطريقة ميكانيكية ، دون تردد أو مناقشة، كما هو حال الأوامر الدينية والعسكرية، ويسمى هذا بالتواصل التوجيهي.

لكن هناك من يرفض هذا التصور الميكانيكي، فيعتبر المقصدية قاسما مشتركا بين كل من المتكلم والمتلقي، لافرق بينهما إلا من باب الأخذ بزمam المبادرة. لكن هناك من يرى أن المقصدية قد يتحكم فيها المتلقي، فيجعل المتكلم في قبضة يده، فيتصرف فيه كيفما يشاء، ثم يضطر المتكلم إلى تكييف خطابه حسب رغبات المتلقي، بل قد يكون ناطقا بلسانه⁵⁰.

وهكذا، " لم تخل كتابة من الإشارة إلى القصد والقصدية والمقصدية، ومما يفيد هذا المعنى؛ فالباحثون جميعهم يجعلون المميز الأساسي بين الإنسان وغيره هي المقصدية. ولكن هناك من قصرها على ماورد فيه جذرها صراحة أو ضمنا (هرمان باريت Parret)، ومنهم من جعلها مسبقة (كريماس Greimas)، كما أن منهم من جعلها ميكانيكية موجهة (أوستين Austin، وسورل Searle، وكرايس Grice). بيد أنها لا تقتصر على المتكلم، ولكنها تشمل المخاطب أيضا. ولهذا، فقد تتفق المقصديتان درجات من الاتفاق، وقد تختلفان درجات من الاختلاف (نظرية التلقي)، مما أدى إلى طرح إشكالياتها الفلسفية والمنهجية، باعتبار أنها غالبا ما لا تكون ظاهرة في النص، وإنما يفترض أنها تكمن خلفه. لذلك، بذلت محاولات لصورتها (بتيطو Jean Petitto / وأبوسطل Leo Apstel) للخروج بها من ميدان علم النفس إلى مجال اللسانيات.

إنها - مهما اختلفت وجهات النظر في كيفية تناولها- مجمع على وجودها. كأنها تكسب الكلام دينامية وحركة، بل هي منطلق الدينامية.⁵¹

ويعني هذا أن النص الأدبي - باعتباره جملا وملفوظات لغوية- يحوي مجموعة من المقاصد المباشرة والضمنية التي يعبر عنها المتكلم أو المتلقي أو

⁵⁰ - محمد مفتاح: دينامية النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 1987م، ص:46.

⁵¹ - محمد مفتاح: دينامية النص، ص:38-39.

هما معا. بتعبير آخر ، ثمة مقاصد أولية تتعلق بالمتكلم المرسل قد يكون شاعرا - مثلا -، فيعبر عن بعض مقاصده كالحب والخوف والاعتقاد والتمني والكرهية. وفي المقابل، ثمة مقاصد ثانوية تتعلق بالمتلقي السامع الذي عليه أن يفهم مقاصد الشاعر المبدع، ويتعرف ظروفه وحالاته النفسية والذهنية والوجدانية.

وإذا انتقلنا إلى النص الأدبي، فإن المبدعين والشعراء قد يوظفون كلمات وتعابير وأسماء أعلام لها مقصدية مباشرة وغير مباشرة، قد تدرك بطريقة ظاهرة، أو تفهم بالتضمين والتلميح. وهذه المقصدية واضحة في الشعر العربي المعاصر أكثر من الشعر العربي القديم؛ إذ يوظف الشاعر المعاصر اللغة في ضوء سيميائية قصدية؛ حيث تتحول قصائده إلى علامات ورموز وإشارات وأيقونات تحمل، في طياتها، دلالات مقصدية جلية أو مضمرة، ينبغي استكشافها من قبل المتلقي بآليات التفكير والتشريح والتقويض والتأجيل والتأويل؛ "إن الشعراء مهما كانت أجناسهم وأمصارهم وأزمنتهم حرصوا على قصدية اللغة الشعرية، بمعنى الارتباط الطبيعي بين الدال والمدلول. فقد اعتنقوا، بدرجات متفاوتة النظرية "الكراتيلية" على حساب "الهرموجينية". إلا أنه إذا كان الشعراء القدماء يستعملون اللغة بحسب ماتملي عليه تجاربهم، فإن المحدثين والمعاصرين الذين تأثروا بالتيارات السيميائية المعاصرة صاروا يقصدون اللغة بسبق الإصرار. وهكذا، نجد ، في قصائدهم، ما يحاكي أصوات الطبيعة ، وحشدا هائلا من أسماء الأعلام المختلفة ذات الدلالات الإيحائية، وألفاظا عتيقة ضاربة في أعماق التاريخ، أو حديثة آتية من آفاق مختلفة. وهذا التداخل المعجمي يخلق عدة معان فرعية عرضية تقرأ بتشاكلات مختلفة بحسب الوسط الذي دعيته منه الكلمة مما يجعلها مؤشرا كنائيا عليه. وقد تصبح أيقونا إذا توفرت فيها علاقة المثلية أو المشابهة."⁵²

وهكذا، تتعامل المقاربة التداولية مع النص الأدبي والخطاب الإبداعي باعتباره مقصدية سياقية بامتياز، ينبغي استحضارها بغية تأويل النص تأويلاً صحيحاً وسليماً.

الفرع الثامن: النص الأدبي تفاعل

ينبني النص الأدبي أساساً - حسب النظرية التفاعلية - على التفاعل (Interaction)، باستحضار المتكلم والمتلقي اللذين يدخلان في علاقة تفاعلية ديناميكية إيجابية أو سلبية حسب منطق السلطة، والتفاوت الاجتماعي والمعرفي والطبقي. بيد أن السلطة التفاعلية قد يحوزها المتكلم، وقد يمتلكها المتلقي، وقد يشتركان فيها عبر التفاعل التضامني الإيجابي والتعاون التداولي المثمر. وفي هذا الإطار، يقول محمد مفتاح: "نقصد بالتفاعل علاقة المرسل بمتلقيه، سواء أكان ذلك المتلقي فرداً أو جماعة، موجوداً بالفعل أو بالقوة. ومن شأن هذه العلاقة أن تسلب السلطة المطلقة من المرسل على إصدار خطابه بعجرفة أو لامبالاة نحو الآخرين، وأن تدخله في دائرة القواعد الضمنية أو العلنية، وأن تجعله كيف خطابه على قدر متلقيه ليحصل التفاعل، وكسب استمالة المتلقي، ونيل رضاه. ونظرية التكيف هذه تتيح لنا معرفة السبب في تلون خطاب مؤلف واحد، فقد يكون من عادة الإجابة، واستعمال أساليب راقية، وصور غريبة، ولكننا قد نفاجأ بغير ما هو معتاد منه، وليس من سبب رئيسي وراء ذلك إلا محاولة التكيف.

على أن هناك اعتراضاً قد يطرح وهو: إن هذا الذي قلتموه يصح في الخطاب التقليدي الروتيني الشعائري المخاطب للناس بما ألفوه، ولكنه لا يستقيم في الخطاب الأدبي العربي الحديث أو المعاصر القائم على مفاجأة المتلقي، وعلى تعميم الطريق أمامه... ومع وجاهة هذا الاعتراض، فإننا نفترض أن كل خطاب جاد يهدف إلى عملية ربح المتلقي، وكسبه إلى جانبه، والربح - هنا - كيفي، وليس كمياً.⁵³

⁵³ - محمد مفتاح: نفسه، ص: 50-51.

وللتوضيح أكثر، إذا كانت النظرية الإبلاغية تهدف إلى نقل المعلومات، فإن النظرية التفاعلية تهدف إلى توطيد العلاقات الاجتماعية بين الطرفين المتحاورين تدعيما، وتقوية، وتعصيда، وتآزرا، وتعزيزا. وفي هذا الصدد، يقول الباحث المغربي محمد خطابي: "يقصد بالوظيفة التفاعلية قيام شكل من أشكال التفاعل اللغوي بين فردين أو بين مجموع أفراد عشيرة لغوية. على أن هذه الوظيفة الثانية تكتسي صبغة خاصة باعتبار أنه لا يهدف من ورائها إلى نقل المعلومات، وإنما إلى تأسيس وتعزيز العلاقات الاجتماعية والحفاظ عليها. إضافة إلى ذلك، فهي تعبر عن هذه العلاقات الاجتماعية والآراء والمواقف الشخصية والتأثيرات المرغوب إحداثها في العقيدة أو الرأي أو ماشابه ذلك. فمن الطبيعي - إذأ- أن يهتم بهذه الوظيفة علماء الاجتماع وعلماء الاجتماع اللغوي ودارسو التخاطب وأضرابهم.⁵⁴

وعليه، يمكن دراسة النص الأدبي في ضوء النظرية التفاعلية، ولاسيما عندما نريد مقارنة النص المسرحي الذي تحمل حواراته، في طياتها، وظائف عدة، وخاصة ما يتعلق بالتخاطب والتفاعل بين الشخصيات داخل مقام تواصلية وسياق تداولي معين.

الفرع التاسع: النص الأدبي حجاج وإقناع

تذهب التداولية الحجاجية إلى أن النص أو الخطاب عبارة عن روابط لغوية حجاجية. وخير من يمثل هذه المقاربة الحجاجية أوزوالد دوكرو (Ducrot) الذي أدخل البعد التداولي ضمن الوصف اللساني، باعتباره أحد مكوناته الرئيسية إلى جانب التركيب والدلالة على غرار شارل موريس. ويعني هذا أن البعد التداولي للملفوظ يوجد في اللغة نفسها، وليس مرتبطا بسياق تلفظي ما. ومن ثم، فالعلاقات الموجودة بين الملفوظات هي علاقة حجاجية، وليست منطقية استنباطية. بمعنى أن القواعد الحجاجية هي التي تتحكم في ترابط ملفوظات النص، وتسلسلها في علاقاتها بمعانيها، وليست هي القواعد المنطقية

⁵⁴ - محمد خطابي: لسانيات النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 1991م، ص:48.

والاستتباطية. أي: إن الروابط الحجاجية هي التي تتحكم في اتساق النص وانسجامه ، كالضمائر ، وحروف العطف، والأسماء الموصولة، وأسماء الإشارة، وروابط الإثبات والنفي، والاستنتاج، والاستدراك...ومن ثم، يتحقق تواصل الملفوظات عبر أفعال الكلام، وليس عبر الصفات من جهة، وفهم الملفوظ يعني فهم أسباب تلفظه من جهة أخرى. ومن ثم، اهتم دوكرو كثيرا بالروابط التعبيرية التي تخلق اتساق النص وانسجامه، واهتم كذلك بالتمفصلات اللغوية التي تسهم في خلق النص الحجاجي برهنة، ومنطقا، واستدلالات، وترابطا، وترتيباً، وهيكلية.

والغرض من هذا الحجاج هو الإقناع والتأثير والتداول والتواصل والتخاطب. ومن ثم، فالحجاج فعالية تداولية جدلية ديناميكية فعالة بامتياز. وهناك نوعان من الحجاج:

أولاً، **حجاج عادي وطبيعي** عند البلاغيين الجدد، يستعمل آليات وتقنيات بلاغية ومنطقية. أي: مجمل الإستراتيجيات التي يستعملها المتكلم من أجل إقناع مخاطبه، أو جعله يقتنع بفحوى الكلام وقضاياها. وفي هذا المجال، ارتبطت البلاغة الجديدة بالحجاج ارتباطاً وثيقاً، فاستعملت تقنيات البلاغة في عملية الإقناع والإقناع، وقد اهتم بها كل من بيرلمان (Perelman) و أولبريخت تيتيكا (Tyteka) في كتابهما (**مصنف في الحجاج: البلاغة الجديدة**) (1958م)، وقد ركز بيرلمان كثيراً على مبدئين رئيسيين هما: القصد والمقام. ويمكن الاستفادة من هذا التصور الحجاجي التقليدي؛ حيث يساعدنا على "اكتساب خبرة منهجية دقيقة في تحليل نصوص ذات طبيعة حجاجية قوية، كالنصوص القضائية والسياسية والفلسفية، بناء على تصور تفاعلي بين الذات المتكلمة والمخاطبين. وعلى الرغم من ميزات هذا التصور، فإنه يقصر الحجاج على بعض التقنيات والآليات البلاغية والمنطقية، وهو ما يدفعه إلى تقسيم الخطابات إلى خطابات حجاجية ذات طبيعة إقناعية، كالمناظرات والمجادلات الدينية والفلسفية والسياسية والقانونية، وأخرى غير حجاجية .

بينما يتبنى التصور التقني للحجاج تقسيما آخر تصير بمقتضاه كل الخطابات المختلفة التي تستعمل لسانا طبيعيا خطابات حجاجية بدرجات مختلفة.⁵⁵

ثانيا، **حجاج لغوي** يعتمد على الروابط اللغوية في عملية الإقناع والمحاجة، ويمثل هذا الاتجاه كل من أوزوالد دوكرو في كتابه (السلام الحجاجية) (1989م)، وأنسكومبر (Anscobre). ويسمى هذا أيضا بالحجاج داخل اللغة، وهو امتداد للمقاربة التلفظية عند إميل بنيفنست. ويركز دوكرو على منطق الكلام، باستكشاف القواعد الداخلية للخطاب التي تتحكم في ترابط النص، وتسلسله، واتساقه، وانسجامه. ومن هنا، ليس الحجاج خارجا عن اللغة أو يضاف إليها، بل هو موجود داخل اللغة وعبرها وفي بنيتها الضمنية. كما أن الجملة باعتبارها مورفيمات ومونيمات وتعابير وصيغ، بالإضافة إلى محتواها القضوي الإخباري، يمكن أن توجه للمتلقى تأثيرات إقناعية حجاجية سلبية أو إيجابية.

من هنا، يمكن مذاكرة النص الأدبي، سواء أكان سردا أم مسرحية أم نصا شعريا، في ضوء المقاربة الحجاجية، باستكشاف الروابط الحجاجية اللغوية التي تتحكم في بناء النص وترابطه، وتبيان البعد الحجاجي والإقناعي في النص، بالتشديد على السلم الحجاجي الذي يعنى بدراسة مسار الحجاج انطلاقا من قول الحجة إلى نتیجتها، و توصيف طريقة التلازم، وشرح طريقة التعاقد، والإشارة إلى سلم التفاضل بين الحجج من حيث القوة والضعف، و الكم و کیف ... إلخ

الفرع العاشر: النص الأدبي استلزام حوار

ترى المقاربة التداولية والوظيفية أن النص أو الخطاب الأدبي استلزام حوارى وإنجازى بامتياز. وهنا، نتحدث، بطبيعة الحال، عن الدلالات الصريحة والضمنية. ومن ثم، يتعلق الاستلزام الحوارى بالدلالات الضمنية التي يستلزمها السياق الكلامي. ويرتبط بنظرية الأفعال كما هي عند أوستين

⁵⁵ - رضوان الرقبي: (الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله)، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد 2، المجلد 40، أكتوبر- ديسمبر 2011م، ص: 85.

وسورل. أي: ينتقل الكلام من نطاق حرفي وقضوي مباشر إلى معنى حوارى استلزامي غير مباشر، ويتحكم فيه المقام أو السياق التداولي.

وللتوضيح أكثر قد تكون معاني العبارات اللغوية صريحة، وقد تكون ضمنية. فالمعاني الصريحة هي التي تحمل محتوى قضويا، وتتوفر على القوة الإنجازية الحرفية. فهذا معنى مباشر صريح. أما المعنى الضمني فينقسم، بدوره، إلى قسمين: معنى عرفي يتعلق بالاقتضاء (الإحالة)، والاستلزام المنطقي (الدلالة المنطقية)، ومعنى حوارى ينقسم كذلك إلى معنى خاص (الاستلزام الحوارى)، ومعنى معمم.

وينتج عن هذا كله وجود أنماط من الأفعال حسب أوستين، وهي: فعل التلفظ، والفعل القضوي، والفعل الإنجازي، والفعل التأثيري. ويشمل فعل التلفظ الفعل الصوتي والفعل التركيبي. أما الفعل القضوي، فيتفرع إلى الفعل الإحالي والفعل الحملي. أما الفعلان الإنجازي والتأثيري، فلا يختلفان في مقترح سيرل عنهما في مقترح أوستين كبير اختلاف. وقد اقترح سيرل كذلك أفعالا أخرى انطلقا من نظرية الأفعال اللغوية، وصنفها في خمس: الأفعال الحكيمة (تمثل الواقع صدقا أو كذبا)، والأفعال الأمرية، والأفعال الالتزامية، والأفعال التعبيرية، والأفعال الإنجازية. بيد أن سورل يركز فقط على فعالين رئيسين هما: الفعل القضوي، والفعل الإنجازي.

وبناء على ماسبق، يرى غرايس أن جمل اللغة الطبيعية قد لاتدل على معانيها القضية المباشرة والحرفية، بل تخرج إلى دلالات سياقية إنجازية. لذا، صاغ قانون التعاون بمبادئه الأربعة: مبدأ الكم، ومبدأ الكيف، ومبدأ التعبير، ومبدأ المناسبة. ومن ثم، يسمي كرايس هذا النوع من الجمل الإنجازية التي تحمل معاني سياقية ضمنية بالاستلزام الحوارى. ويتحقق هذا الاستلزام حينما تخرق إحدى القواعد الأربع، باحترام مبدأ التعاون. ويخرج غرايس هذا النوع من الدلالة في تصنيف عام للمعاني التي يمكن أن تدل عليها العبارات اللغوية. ويشرح الباحث اللغوي المغربي أحمد المتوكل ماقلناه سابقا بقوله: "تنقسم الحمولة الدلالية للعبارة اللغوية إلى معان صريحة ومعان ضمنية، وتعد معاني

صريحة المعاني المدلول عليها بصفة الجملة ذاتها . في حين، تعد ضمنية المعاني التي لاتدل عليها بصيغة الجملة.

تشمل حمولة المعاني الصريحة: (أ) المحتوى القضوي (معاني مفردات الجملة مضموما بعضها إلى بعض)، و(ب) القوة الإنجازية الحرفية (القوة الإنجازية المشار لها بصيغة الجملة كالأستفهام والأمر والإخبار...).

2- المعاني الضمنية صنفان: معان عرفية ومعان حوارية (أو سياقية) .

تعد معاني عرفية المعاني المرتبطة بالجملة ارتباطا يجعلها لاتتغير بتغير السياقات. في حين، تعد معاني حوارية المعاني التي تتولد طبقا للسياقات أو المقامات التي تنجز فيها الجملة. من المعاني المتضمنة عرفا المعنى المقتضى أو الاقتضاء ، والمعنى المستلزم منطقيا أو الاستلزام المنطقي.

أما المعاني الضمنية المتولدة عن السياق، فهي نوعان: المعاني الناتجة عن سياق خاص والمعاني البالغة من العموم أنها لم تعد مرتبطة بسياق خاص أو بطبقة معينة من السياقات. يصطلح كرايس على تسمية هذين النوعين من المعاني الضمنية " الاستلزامات الحوارية الخاصة" و " الاستلزامات الحوارية المعممة" على التوالي.⁵⁶

إذا أخذنا على سبيل المثال جملة: " هل تعيرني القلم الأحمر؟"، فالمعنى القضوي يتمثل في جمع الكلمات والمورفيمات التالية: هل- تعير- ني- القلم الأحمر. أما القوة الإنجازية الحرفية، فتتمثل في الاستفهام والأداة "هل" والتنعيم. وإذا جمعنا القضية مع الإنجاز الحرفي يتشكل لدينا المعنى الصريح من الجملة أو العبارة.

أما المعنى الضمني في الجملة، فيتألف من معنيين عرفيين هما: الاقتضاء (اقتضاء وجود قلم أحمر)، والاستلزام المنطقي (كون القلم ذا لون)، ومعنى

⁵⁶ - أحمد المتوكل: نفسه، ص: 28.

حواري خاص أو استلزام حواري خاص، وهو معنى الالتماس. أي: التماس المتكلم من المخاطب أن يعيره القلم الأحمر.⁵⁷

ويمكن التمثيل للاستلزام الحواري المعمم بالجملتين المنفيتين التاليتين:

1- ألم أعطك كل ما عندي؟

2- أما بلغت مرادك؟

فهاتان الجملتان، وكل الجمل التي هي من هذا النوع، تفيدان معنى الإثبات في جميع السياقات.⁵⁸

ونلاحظ من هذا كله أن ظاهرة الاستلزام الحواري، كما طرحها غرايس، قد درست في إطار نظرية الأفعال اللغوية، بمعنى أن "ظاهرة الاستلزام الحواري درست، بعد كرايس، في إطار نظرية الأفعال اللغوية على أساس أنها ظاهرة تعدد الأفعال اللغوية بالنسبة للمحتوى القضوي الواحد. يصنف سيرل الجمل، من حيث عدد الأفعال اللغوية المواكبة لها، صنفين: جملا يواكبها فعل لغوي واحد، وجملا يواكبها أكثر من فعل لغوي واحد (فعلان لغويان في أغلب الحالات). في حالة مواكبة فعلين لغويين اثنين للجملة الواحدة، يميز سيرل بين الفعل اللغوي المباشر والفعل اللغوي غير المباشر، بين الفعل اللغوي الحرفي المدلول عليه بصيغة الجملة ذاتها والفعل اللغوي المفاد من المقام.⁵⁹

وللتمثيل نختار المثال التالي:

س: لنزر سمير في حديقته هذا اليوم.

ج: علي أن أحضر درس الامتحان

يتحقق في هذا المثال فعلان لغويان: فعل لغوي مباشر، وهو إعداد الدرس استعدادا للامتحان؛ وفعل لغوي غير مباشر، وهو رفض الدعوة.

⁵⁷ - أحمد المتوكل: نفسه، ص: 29-30.

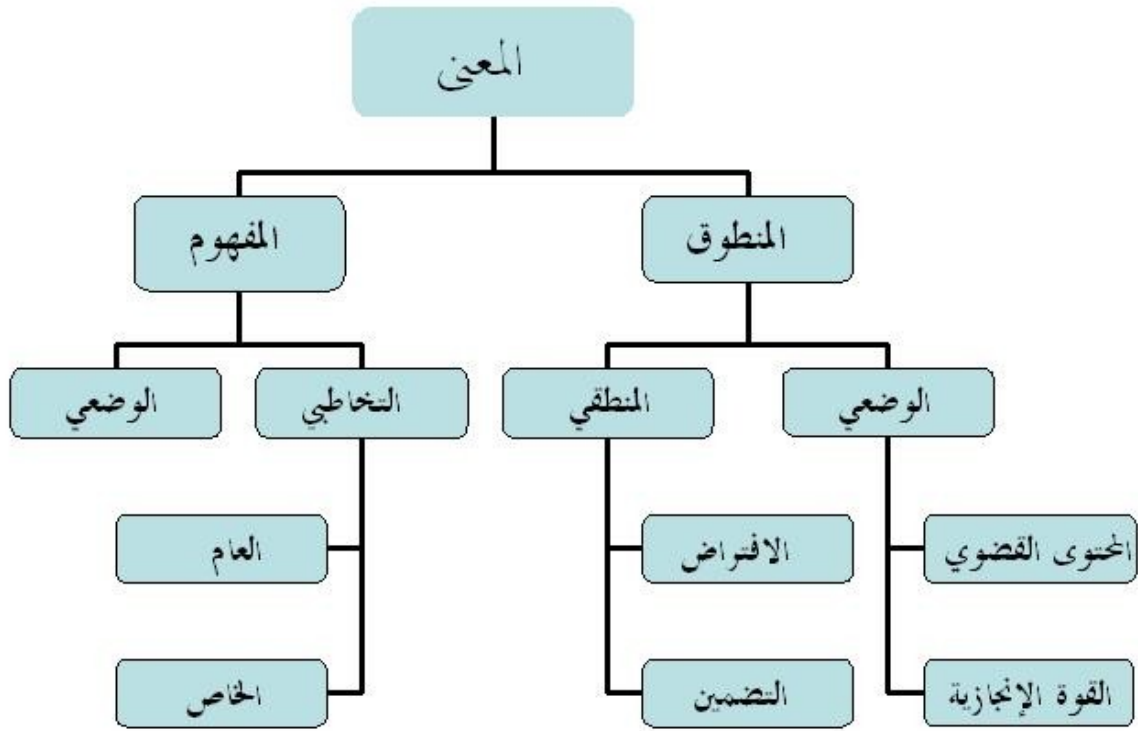
⁵⁸ - أحمد المتوكل: نفسه، ص: 29-30.

⁵⁹ - أحمد المتوكل: نفسه، ص: 30.

هذا من جهة، ويرى أحمد المتوكل، من جهة أخرى ، أن فلاسفة اللغة العادية لم يهتموا بجوانب أخرى من " تداوليات اللغات الطبيعية كالجوانب المرتبطة بالبنية الإخبارية للجملة عنايتهم بالإحالة والاقتضاء والأفعال اللغوية والاستلزام الحوارى. هذه الجوانب المغفلة في الدرس الفلسفي هي أنواع العلاقات الإخبارية القائمة بين مكونات الجملة. فبالإضافة إلى العلاقات الدلالية (الأدوار الدلالية) كالمنفذ والمتقبل والمستقبل والأداة، والعلاقات التركيبية كالفاعل والمفعول، تقوم بين مكونات الجملة علاقات تداولية كالمبتدأ والذيل والمنادى والمحور والبؤرة والمعطى والجديد وغيرها.⁶⁰

وإذا انتقلنا إلى النص الأدبي لتحليله تداوليا، فنقوم بتصنيف العبارات اللغوية إلى عبارات صريحة المعنى؛ حيث نحدد أفعالها القضوية، بتبيان قوتها الإنجازية الحرفية. وبعد ذلك، ننتقل إلى استكشاف المعاني الضمنية، سواء أكانت اقتضائية إحالية أم عرفية أم منطقية. ومن ثم، ننتقل إلى الاستلزام الحوارى باستكشاف المعاني الإنجازية السياقية والمقامية، سواء الخاصة منها أم العامة. ويمكن الاستعانة بالمفاهيم التي تتبنى عليها التداوليات الوظيفية لاستخلاص المعاني الاستلزامية السياقية والمقامية، بالتركيز على الأدوار التركيبية النحوية ، والأدوار الدلالية، والأدوار التداولية. علاوة على ذلك، يمكن تصنيف أفعال النص الأدبي إلى أفعال تلفظية، وأفعال قضوية، وأفعال اقتضائية، وأفعال عرفية، وأفعال إنجازية حرفية، وأفعال إنجازية سياقية، إلخ...

60 - أحمد المتوكل: نفسه، ص: 32.



الفرع الحادي عشر: النص الأدبي حوارية تداولية وبوليفونية

تعرف فرانسواز أرمينكو (Françoise Armengaud) الحوارية بأنها "مكون لكل كلام، وتعرف كتوزيع لكل خطاب إلى لحظتين تلفظيتين توجدان في علاقة حالية، ويقدم المبدأ الحوارية من خلال الحدود التالية: كل تلفظ يوضع في مجتمع معين لا بد من أن ينتج بطريقة ثنائية، تتوزع بين المتلفظين الذين يتمرسون على ثنائية الإصااتة وثنائية العرض، على حد تعبير فرانسيس جاك، وإن كل كلام إلا وله مالكان تقريبيان، وربما كان من المضبوط القول بأن سيدة الكلام الحوارية هي العلاقة التخاطبية ذاتها".⁶¹

بمعنى أن الملفوظ التخاطبي دال بشكل بارز، مادام يتموضع في مجتمع المتحاورين والمتناظرين. ومن ثم، يمتلك علاقات حوارية وتخاطبية. ومن ثم، تقوم الحوارية على عرض الملفوظات المتبادلة، فتتربط الحوارات الحالية مع الحوارات السابقة والحوارات اللاحقة.

⁶¹ - فرانسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى سنة 1987م، ص: 112.

علاوة على ذلك، يمكن الحديث عن أنواع من الحوارية ، فهناك حوارية حجاجية فلسفية وتداولية كما عند فرنسيس جاك، وحوارية أدبية كما عند الروسي ميخائيل باختين ، وحوارية بوليفونية لسانية ولغوية كما عند أزوالد دو كرو. كما تنقسم الحوارية أيضا إلى حوارية صريحة، وحوارية مضمرة، وحوارية متعددة الأصوات.

وتحقق الحوارية مجموعة من الوظائف والأهداف " نجد في الدرجة الأولى أنها تمنح للتلفظ طبيعة نسبية وتفاعلية. وتحكم في الدرجة الثانية عند المتكلمين- وأكثر في اللحظات التلفظية – نشاطين لايفترقان عن إرادة القول والفهم: في الدلالة والفهم. حين، تكون العلاقة التخاطبية غير متعادلة، أو حين تكون موضوعا لنفي صراعي في الخطاب. وتحكم الحوارية في الدرجة الثالثة الدلالة العميقة للتلفظ: مادامت الآلية الإحالية والمضمون القضوي، والقوة الإنجازية للجملة في وضعية تخاطبية.

وتعد آثار الحوارية في مفهوم المتكلم هامة بصفة خاصة. إذ تلغي استقلال الفاعل المتكلم تجاه الدلالات الموصلة. ويحيل التحليل المتعالي، في علاقة بهذا، لا على الفاعل، بل على العلاقة التخاطبية نفسها.⁶²

ومن هنا، تتجاوز الحوارية الجملة، مادام التخاطب قائما على السؤال والجواب، وتجاوز للمتكلم إلى العلاقة التخاطبية التي تجمع بين المتكلم والمتلقي، ووجود إحالة على الأشخاص من جهة، وإحالة على العالم سياقاً ومقاماً من جهة أخرى.

أما فيما يخص الحوارية المتعددة في الأدب، فتتبنى على تعددية في الأطاريح والأفكار والإيديولوجيات ووجهات النظر، وتعدد في الرواة والسراد، وتعدد في اللغات واللهجات والأساليب، واعتماد السخرية، والباروديا، والتهجين، والأسلبة، والتناص. بمعنى أنها رواية تفاعلية نسبية تحتكم إلى ديمقراطية السرد والرؤية والإيديولوجيا.

⁶² - فرانسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، ص: 112.

ويعرف ميخائيل باختين الرواية البوليفونية بقوله: "إن الرواية المتعددة الأصوات ذات طابع حوارى على نطاق واسع. وبين جميع عناصر البنية الروائية، توجد دائما علاقات حوارية. أي: إن هذه العناصر جرى وضع بعضها في مواجهة البعض الآخر، مثلما يحدث عند المزج بين مختلف الألحان في عمل موسيقي. حقا إن العلاقات الحوارية هي ظاهرة أكثر انتشارا بكثير من العلاقات بين الردود الخاصة بالحوار الذي يجري التعبير عنه خلال التكوين، إنها ظاهرة شاملة تقريبا، تتخلل كل الحديث البشري وكل علاقات وظواهر الحياة الإنسانية، تتخلل تقريبا كل ماله فكرة ومعنى." ⁶³

وهكذا، تتبنى الرواية البوليفونية على تعدد المنظورات السردية ووجهات النظر (الرؤية من الخلف - الرؤية الداخلية - الرؤية من الخارج). بالإضافة إلى تعدد الضمائر السردية (ضمير المتكلم - ضمير المخاطب - ضمير الغائب)، وتعدد الرواة والسراة الذين يعبرون عن اختلاف المواقف الفكرية، وتعدد المواقف الإيديولوجية، واختلاف وجهات النظر تواصلًا، وتبليغًا، واقتناعًا. بمعنى أن كل قصة نووية يسردها سراد مختلفون، كل سارد له رؤيته الخاصة إلى زاوية الموضوع. أي: يعطي المؤلف للشخص الحرية والديمقراطية في التعبير عن وجهات نظرها، دون تدخل سافر من المؤلف لترجيح موقف على حساب موقف آخر، بل يترك كل شخص يدلي برأيه بكل صراحة وشفافية، فيعلن منظوره تجاه الحدث والموقف بكل صدق وإخلاص، ثم يعبر عن نظره وإيديولوجيته بكل مصداقية، دون زيف أو موارد أو تغيير لكلامه. كأن تعبر شخصية ما عن رؤيتها الإسلامية، وتعبر شخصية أخرى عن رؤيتها الاشتراكية، وشخصية ثالثة عن الرؤية الشيوعية، وشخصية رابعة عن رؤية أرستقراطية، هكذا دواليك. لكن للقارئ الحق الكامل في اختيار الرؤية التي يراها مقنعة ووجيهة، دون أن يفرض عليه الكاتب أو المؤلف أو السارد المطلق رؤية معينة، عبر مجموعة من الآليات كترجيح وجهة نظر شخصية

⁶³ - ميخائيل باختين: شعرية دويستفسكي، ترجمة: الدكتور جميل نصيف التكريتي، دارتوبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 1986م، ص: 59.

معينة، وتسفيه آراء الشخصيات الأخر عن طريق التقويم الذاتي والانفعالي، وإصدار أحكام القيمة.

الفرع الثاني عشر: النص الأدبي سياق

لقد أعطت النظرية التوليدية التحويلية مع نوام شومسكي أهمية كبرى للكفاءة اللغوية على حساب الإنجاز أو القدرة التداولية، أو على حساب الاستعمال والأداء والإنجاز. ومن ثم، فالنظرية التوليدية نظرية صورية تتسم بقدر عال من التجريد والأمثلة، مادامت لاتعنى بالسياق والاستعمال الإنجازي التداولي. و" لقد جاءت البراغماتية بعد مراحل من الدراسات الصورية أو البنائية للمعنى، التي عرف بها التوليدون على وجه الخصوص، ولعل روبرين لاکوف (Robin Lakof) من أوائل التوليديين الذين شككوا في إمكان دراسة المعنى معزولا عن السياق، وتحمل شهادة أحد التوليديين المعروفين بإغراقهم في التجريد على إخفاق النهج الصوري البنائي في دراسة المعنى قيمة خاصة في البرهنة على أهمية السياق، والاستخدام في تقديم تفسير سليم لعملية التخاطب."⁶⁴

ولقد تعرضت النظريات اللسانية الصورية، سواء أكانت بنيوية وصفية أم بنيوية تفسيرية، لمجموعة من الانتقادات الداعية إلى ربط التركيب والدلالة بالسياق الوظيفي والتداولي. وهكذا، " فمنذ السبعينيات، توالى الانتقادات للدراسات التي تجعل من الجملة وحدة للتحليل اللغوي، وزاد عزوف مختلف الباحثين عن الدراسات التي لا تأخذ في حسابها العناصر السياقية، والجوانب التخاطبية في دراسة اللغة. فاللسانيون الاجتماعيون بدأوا يرفضون فكرة المتحدث المثالي عند تشومسكي، وشبيه بهذا ما فعلته اللسانيات النصية، وتحليل الخطاب حين رفضتا قصر الدراسات اللسانية على ما يسمى بنحو الجملة؛ متأثرين في ذلك ببعض الوظيفيين من أمثال: فيرث، وهاليداي، وميتشال (Mitchell) الذين بلغت شهرتهم أوجها في الخمسينيات".⁶⁵

⁶⁴ - محمد محمد يونس علي: نفسه، ص: 136-137.

⁶⁵ - محمد محمد يونس علي: نفسه، ص: 137.

ويذهب كل من براون ويول، في كتابهما (تحليل الخطاب) (1983م)، إلى أن محلل النص ومؤوله عليه أن يراعي مجموعة من العناصر المهمة في عملية التداول هي: المتكلم، والمخاطب، والسياق الذي تبلور فيه النص بمعرفة الزمان والمكان، وقد يؤدي القول الذي قيل في سياقين مختلفين إلى تأويلين مختلفين. ويعني هذا أن السياق هو الذي يتحكم في بنية التأويل الخطابي. ويرى هايمس أن السياق له وظيفة مزدوجة تتمثل في تقييد مجال التأويل، ودعم التأويل المقصود. كما صنف هايمس السياق إلى العناصر التالية: المرسل، والمتلقي، والحضور (المستمعون الآخرون)، والموضوع، والمقام (زمان الحدث التواصل ومكانه)، والقناة، والنظام (اللغة أو اللهجة...)، وشكل الرسالة، والمفتاح (هل كانت الرسالة موعظة حسنة، شرحا مثيرا للعواطف؟...)، والغرض. أما ليفيس، فيحصر السياق في العناصر التالية: العالم الممكن، والزمان، والمكان، والحضور، والشئ المشار إليه، والخطاب السابق، والتخصيص⁶⁶.

علاوة على ذلك، يقوم السياق بدور مهم في تحقيق اتساق النص وانسجامه. وفي هذا الصدد، يقول محمد خطابي: "إن الخطاب القابل للفهم والتأويل هو الخطاب القابل لأن يوضع في سياقه، بالمعنى المحدد سلفا، إذ كثيرا ما يكون المتلقي أمام خطاب بسيط للغاية (من حيث لغته)، ولكنه قد يتضمن قرائن (ضمانا أو ظرفا) تجعله غامضا غير مفهوم بدون الإحاطة بسياقه. ومن ثم، فإن للسياق دورا فعالا في تواصلية الخطاب وفي انسجامه بالأساس. وما كان ممكنا أن يكون للخطاب معنى لولا الإمام بسياقه." ⁶⁷

ويعني هذا أن النص الأدبي لا يمكن أن يبقى مغلقا على ذاته، منطويا على بنياته السيميائية أو الصورية المجردة، بل عليه أن يفتح على العوالم السياقية التداولية المتعددة الدلالات. بمعنى أن النص لا بد أن يخضع لمبدأ التأويل السياقي، بالانفتاح على السياق النصي الداخلي، والسياق الخارجي المتعدد الأبعاد. وعليه، أن يبين أنواع السياق التي تتحدد - حسب باريت (Parret) -

⁶⁶ - محمد خطابي: نفسه، ص: 52-54.

⁶⁷ - محمد خطابي: نفسه، ص: 56.

في: السياق النصي (تجاوز الجملة إلى سياق الخطاب)، والسياق الوجودي (الإشارة إلى أشياء العالم الخارجي)، والسياق المقامي (مجموعة من السياقات الموقفية والاجتماعية والزمانية والمكانية والمؤسسية)، وسياق الفعل (سياق نظرية الأفعال اللغوية)، والسياق النفسي (إدماج الحالات الذهنية والنفسية). ولا يكفي الناقد بهذا، بل لابد من إبراز عناصر السياق التي تتمثل في: المرسل، والمرسل إليه، والعناصر المشتركة بينهما من معرفة مشتركة (معرفة عامة بالعالم، ومعرفة بنظام اللغة، ومعرفة بالزمان والمكان...)، وعلاقة اجتماعية تفاعلية، سواء أكانت علاقة حميمة أم رسمية (علاقة سلطة). ولا ننسى أن نحدد إستراتيجيات الخطاب التي تربط الخطاب بالمقام السياقي. ومن بين هذه الإستراتيجيات: الإستراتيجية التوجيهية، والإستراتيجية التضامنية، والإستراتيجية التلميحية، وإستراتيجية الإقناع. وتستند هذه الإستراتيجيات إلى عاملين رئيس هما: السلطة والمقصدية.

ولا ننسى أن يحدد الناقد التداولي، حين التعامل مع الخطاب الأدبي، القدرة الكفائية التي يمتلكها صاحب النص أو الخطاب الأدبي، وتتمثل هذه القدرات - حسب فان ديك - في خمس ملكات رئيسة يمكن حصرها فيما يلي:

- ① **الملكة اللغوية:** إنتاج عبارات لغوية متعددة في سياقات موقفية معينة؛
- ② **الملكة المنطقية:** توظيف معارف قائمة على الاستدلال الاستنباطي أو الاستقرائي أو الاحتمالي؛
- ③ **الملكة المعرفية:** استثمار المعرف المنظمة في تأويل العبارات اللغوية المنتجة؛
- ④ **الملكة الإدراكية:** إدراك المحيط، واستثمار معارف المحيط في إنتاج العبارات اللغوية؛

⑤ **الملكة الاجتماعية:** تعني أن المتكلم على دراية تامة بما يقوله، بل يعرف كذلك كيف يستعمل ما يعرفه من جمل ومعارف في سياق تواصله معين⁶⁸.

وهناك قوالب خطابية تتلاءم جدليا مع كل ملكة كفائية، وتتعلق بالقدرة اللغوية من جهة ، والسياق من جهة أخرى، فيوجد القالب اللغوي (الملكة اللغوية)، والقالب المنطقي (الملكة المنطقية)، والقالب المعرفي (الملكة المعرفية)، والقالب الإدراكي (الملكة الإدراكية)، والقالب الاجتماعي (الملكة الاجتماعية).

وهناك مقترح بإضافة قالب سادس، وهو القالب الشعري الذي يتناسب مع الملكة الشعرية، برصد القدرة الشعرية لدى مستعملي اللغة الطبيعية، ويمكنهم من إنتاج ما يسمى بالخطاب الشعري أو الفني وفهمه بوجه عام ، وقد أضافها الباحث اللغوي المغربي أحمد المتوكل، بل هناك من أضاف قالباً سابعا ، وهو الباحث المغربي عز الدين البوشيخي ، ويسمى بالقالب التخيلي الذي يتناسب مع الملكة التخيلية، برصد الكفاءة التخيلية لدى مستعملي اللغة الطبيعية، ويمكنهم من إنتاج ما يسمى بالخطاب التخيلي وفهمه أدبا وفنا⁶⁹. بيد أن ما يلاحظ على هذه القوالب أنها قد تكون جميعها مجتمعة في الخطاب، أو قد لا نجد في الخطاب سوى قالب واحد أو قالبين..

الفرع الثالث عشر: النص الأدبي إحالة

من المعلوم أن النص أو الخطاب الأدبي إحالة مرجعية وسياقية ومقامية وتداولية، فلا يمكن فهم الملفوظ النصي أو الخطاب باعتباره كلية عضوية متسقة ومنسجمة إلا إذا راعينا مفهوم الإحالة النصية والمقامية والسياقية. وقد تحدث هاليداي وحسن، في كتابهما (الاتساق في اللغة الإنجليزية) (1976م)، عن الإحالة كثيرا، وعدا الإحالة مظهرا من مظاهر اتساق الخطاب اللغوي. ومن ثم، " يستعمل الباحثان مصطلح الإحالة استعمالا خاصا، وهو أن

⁶⁸ - عبد الهادي بن ظافر الهشري: إستراتيجية الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ، سنة 2004م، ص: 57.

⁶⁹ حافظ إسماعيل علوي: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان ، الطبعة الأولى سنة 2009م، ص: 177.

العناصر المحيلة كيفما كان نوعها لاكتفي بذاتها من حيث التأويل، إذ لا بد من العودة إلى مانتشير إليه من أجل تأويلها. وتتوفر كل لغة طبيعية على عناصر تملك خاصية الإحالة، وهي حسب الباحثين: الضمائر، وأسماء الإشارة، وأدوات المقارنة. تعتبر الإحالة علاقة دلالية. ومن ثم، لاتخضع لقيود نحوية، إلا أنها تخضع لقيد دلالي، وهو وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه.⁷⁰

وتنقسم الإحالة إلى إحالة مقامية، وهي إحالة إلى خارج النص؛ وإحالة نصية لها علاقة وثيقة بالداخل النصي. وتنقسم الإحالة النصية بدورها إلى إحالة قبلية تحيل على سابق ما، وإحالة بعدية تحيل على لاحق ما. ويرى هاليداي ورقية حسن أن الإحالة المقامية "تساهم في خلق النص، لكونها تربط اللغة بسياق المقام، إلا أنها لاتساهم في اتساقه بشكل مباشر"⁷¹، بينما تقوم الإحالة النصية بدور مهم في اتساق النص وترابطه تماسكا وانسجاما.

المطلب الرابع عشر: النص الأدبي والتأويل السياقي

يتضمن النص أو الخطاب الأدبي عوالم غامضة من الدلالات العائمة والأفكار الضمنية التي تختفي وراء متاريس مجازية وإيحائية. ومن هنا، يتميز النص الأدبي عن الأقوال العادية بقوالب شعرية وتخيلية، ويتسم أيضا بقوة الانزياح والخرق والترميز والأسطورة والكثافة البلاغية المعقدة والمتشابكة. و يحتاج هذا إلى قارئ ومحلل وناقد تأويلي يفكك الدلالات في ضوء مقاصدها وسياقاتها الوظيفية. ومن ثم، يتقيد بمبدأ التأويل المحلي الذي قال عنه محمد خطابي في كتابه (لسانيات النص) (1991م): "يرتبط هذا المبدأ بما يمكن أن يعتبر تقييدا للطاقة التأويلية لدى المتلقي باعتماده على خصائص السياق، كما أنه مبدأ متعلق أيضا بكيفية تحديد الفترة الزمنية في تأويل مؤشر زمني مثل: "الآن"، أو المظاهر الملائمة لشخص محال إليه بالاسم "محمد" مثلا. ويقتضي هذا

70 - محمد خطابي: نفسه، ص: 16-17.

71 - Halliday, M.A.K and R.Hassan: Cohesion in English. Longman. London. 1976. P:37.

وجود مبادئ في تناول المتلقي تجعله قادرا على تحديد تأويل ملائم ومعقول ... في مناسبة قولية معينة. إن أحد هذه المبادئ هو التأويل المحلي الذي يعلم المستمع ألا ينشئ سياقا أكثر مما يحتاجه من أجل الوصول إلى تأويل ما؛ فبهدف تقييد التأويل، يضطر المتلقي إلى اعتبار ماتقدم خاصة (وهو ما يسمى في اصطلاح ليفيس "الخطاب السابق")⁷².

ويعني هذا كله أن الدارس للنص الأدبي لابد أن يراعي المقصدية والسياق والإحالة في عملية التأويل إن تفكيكا، وإن تركيبا. ومن الذين دافعوا عن التأويل السياقي والإحالي الفيلسوف الفرنسي بول ريكور الذي تجاوز ثنائية فرديناند دوسوسير: الدال والمدلول، لينفتح على المرجع. ويعني هذا أن اللسانيات البنيوية والسميائيات قد أقصيتا الإحالة أو المرجع من حسابها. في حين، أعادت لها سيميوطيقا بول ريكور اعتبارها؛ لأن المؤول لا ينبغي أن يقف عند حدود التفسير العلمي للواقعة النصية، فلا بد أن يقرأ النص قراءة ذاتية من أجل فهم الذات، وفهم الغير، وفهم العالم الخارجي لتأسيس هويته الشخصية. ومهما كان النص تخييليا أو علاماتيا أو رمزيا، فإنه ينقل عبر استعاراته ولغته ومخياله العالم الخارجي، أو المعطى الواقعي المادي محاكاة، وتماثلا، وتقابلا. ومن ثم، تضع سيميوطيقا ريكور تقابلا بين البنيوية باعتبارها علما لعالم مغلق من العلامات، والهيرمونيطيقا باعتبارها مقاربة تأويلية تفسيرية للمرجع اللغوي في علاقته بالعالم والسياق الوظيفي.

المطلب الخامس عشر: النص الأدبي بين المعنى الحرفي والمعنى السياقي

تتأرجح النصوص والخطابات بين المعاني الحرفية القائمة على التقريرية والمباشرة والتعيين، والمعاني السياقية المبنية على التضمين والإيحاء والاقتضاء والاستلزام الحوارية والإنجازية. بمعنى أن النص قد يحتوي على ملفوظات وجمل دلالية تحمل مضامين قضوية إخبارية، تنقل العوالم الذاتية والموضوعية الكائنة والممكنة بطريقة حرفية مباشرة، وقد توجد مجموعة من

72 - محمد خطابي: نفسه، ص: 56.

المعاني، وخاصة في النصوص الإبداعية، تحمل ، في طياتها، أبعادا سياقية وتداولية وإنجازية، تحتاج إلى تأويل تداولي، واستكشاف وظيفي.

وقد ميز سورل (Searl)، في كثير من كتاباته التداولية ، بين المعنى الحرفي والمعنى السياقي المرتبط بالمقام والسياق والإحالة. وفي هذا النطاق، تقول فرانسواز أرمينكو في كتابها (المقاربة التداولية) (1985م): "يعمل المعنى الحرفي والمعنى السياقي على مشكل الحدود بين الدلالة والتداولية، من خلال الاختلاف بين فكرة المعنى الحرفي والسياق المنعدم، لقد دعم سيرل فيما يخص هذه النقطة أطروحات متطرفة ظاهريا. إذ يقوم أساس ما يقول به سيرل على شروط تطبيق مفهوم المعنى الحرفي. ويدعمه كون المعنى الحرفي لجملة ما، لايعني عدم وجوده، بل نسبته، بالنسبة لتصعيدات سابقة، يطلق عليها التصعيدات السياقية، وذلك خارج كل مايعترف به عادة، في خضوعه للسياق. أي: الإشارية، إلخ. ويقوم غرض سيرل على الطرح موضع تساؤل للفكرة التي يمكن بها، بالنسبة لكل جملة إدراك المعنى الحرفي لهذه الجملة، في استقلال عن بعض السياقات، كيفما كانت. وندعم كون مفهوم المعنى الحرفي لجملة ما، لايجد تطبيقه عامة، إلا بالنسبة لمجموع التصعيدات السياقية القبلية... ويعبر عن المفهوم الذي سأركز عليه في بعض الأحيان، بقولنا بأن المعنى الحرفي للجملة ما هو المعنى الذي نجد لهذه الجملة، في سياق الصفر، أو في سياق منعدم. وتقوم الإستراتيجية المتبعة عند سيرل على اعتبار الجمل، التي يظهر أنها تكون حالات مسعفة للفكرة، التي يكون المعنى الحرفي بموجبها مستقلا عن السياق، وتوضيح نسبية تطبيق مفهوم المعنى لجملة ما، في كل حالة، فيما يخص تصعيدات سياقية." ⁷³

وتأسيسا على ماسبق، فقد ميز سورل (Searle) بين اللغة العادية واللغة الانزياحية كما في كتابيه (التعبير والمعنى) وكتاب (المقصدية). وإذا كانت اللغة العادية لغة تحيل على الواقع، فإن اللغة الانزياحية تسبب التشويش

73 - فرانسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، ص: 75.

كالمسرح والرواية. ومن ثم، تقوم اللغة العادية على مجموعة من أفعال الكلام، وقد حصرها في أنواع خمسة:

- ① الإخبار بحيث تبلغ مخاطبك خبرا صادقا أو كاذبا؛
- ② الأمر بحيث تحاول أن تجعل مخاطبك ينفذ أمرا ما؛
- ③ الالتزام بحيث يلتزم المتكلم بفعل شيء ما؛
- ④ التصريح بحيث يصرح المتكلم بإحداث تغييرات على العالم المتحدث عنه؛
- ⑤ التعبير الانفعالي بحيث يكون الحديث عن الأحاسيس والمشاعر تجاه الذات أو الموضوع.

بيد أن الصدق في الكلام العادي يختلف عن الصدق في مجال الأدب. وقد وضع سورل قواعد شروط النجاح التداولي في أنواع ثلاثة:

- ① الشروط التحضيرية كامتلاك الأهلية، والكفاءة السياقية، والسلطة العليا؛
- ② شروط الصدق بمعنى ألا يقول المتكلم إلا ما هو مؤمن به، ويعتقده عن صدق وإخلاص؛

- ③ الشروط الجوهرية التي تتلخص في صدق المقاصد والنيات، كأن لا يقول المتكلم ما يناقض معتقداته ورغباته⁷⁴.

وهكذا، عندما نريد تحليل النصوص والخطابات، ولأسيما الأدبية منها، فلا بد من التمييز بين المعاني الحرفية ذات الطابع الخبري والقضوي، والمعاني السياقية التي ترتبط بسياقها الوظيفي والإنجازي. ويعني هذا أنه لا بد من الانتقال من مستوى الدلالة إلى مستوى التداول لتفكيك الجمل، واستكشاف أبعادها الوظيفية والسياقية مقاما وزمانا ومكانا. ويشبه هذا، بشكل من الأشكال، ما يسمى بالاستلزام الحوارية. ويعلم الكل أن النصوص الشعرية طافحة بالصور البلاغية المجازية والمعاني الإيحائية، وهي تترابط شعريا بسياقاتها

⁷⁴ - محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري، ص: 141.

الإحالية والمقامية والنصية والوظيفية، وما على الناقد إلا استجلاؤها وتحليلها وتبيان وظائفها السياقية والمقامية.

المطلب السابع: المقاربة التداولية في العالم العربي

يمكن الحديث عربيا عن مجموعة من الدارسين والباحثين الذين اهتموا بتداوليات النص والخطاب الأدبي، ومعظم هذه الدراسات أنجزها باحثون مغاربة، وجزائريون، وتونسيون.

الفرع الأول: محمد مفتاح والبعد التداولي

تحدث محمد مفتاح عن بعض المفاهيم التداولية في كتابه (في سيمياء الشعر القديم⁷⁵) كالمقصدية عند حازم القرطاجني، والمعاني الجمهورية، والوضوح، واحترام العقدة بين المتكلم والمخاطب، وهي ما يسميه التداوليون بمبدأ التعاون، بما يعنيه من قواعد: الكمية (الاستقصاء)، والكيفية (الصدق)، والعلاقة، والجهة.

وقد اعتمد محمد مفتاح في ذلك على تصورات حازم القرطاجني⁷⁶، وفرانسوا ريكاناتي⁷⁷، وأوزوالد دوكرود الذي عرف مبدأ الكمية بقوله: "إن هذا القانون يحتم على المتكلم أن يعطي، على الموضوع المتحدث عنه، المعلومات الأساسية التي يمتلكها، والتي من شأنها أن تفيد المخاطب"⁷⁸

كما خصص محمد مفتاح البعد التداولي بالفصل السابع في كتابه (تحليل الخطاب الشعري)، عندما تحدث عن التفاعل بين المتكلم والمخاطب. ومن ثم، فقد ذكر بعض التيارات التداولية كتيار موريس، وتيار فلاسفة أكسفورد، وتيار التوليديين، وتيار السرديين.

⁷⁵ - محمد مفتاح: في سيمياء الشعر القديم، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1989م.

⁷⁶ - حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تونس، طبعة 1966م.

⁷⁷ - François Récanati: La transparence et l'énonciation pour introduire à la pragmatique, Paris, Seuil, 1979.

⁷⁸ - O.Ducrot: (Analyse pragmatique), Communication 32, 1981.p:134.

ومن هناك، فقد اهتم تيار موريس بذاتية اللغة والبعد التوصلّي والسياقي، كما عند بنيفنست، ولاينس، وأرويكشيوني، و التركيز على المعينات، والزمان، والمكان، وتعابير الجهة، وألفاظ العاطفة و التقويم⁷⁹.

أما تيار فلاسفة أكسفورد، فيهتم بدراسة أفعال الكلام، ومن أشهر أعضاء هذا التيار: أوستن وسورل، فقد ميزا بين الأقوال الخبرية والأقوال الإنجازية (الأمر- الوعد- التصريح- والمنع- والحث- والتحريض- والنهي- والردع-...). وقد تم الإشارة إلى قواعد المحادثة عند كرايس، وقوانين الخطاب عند دوكرو وشروط النجاح عند سورل..

أما تيار التوليديين، فقد ركز على النص في علاقته بالسياق، ويمثله كل من: أوهمان صاحب كتاب (الأدب فعل)، وفان ديك في دراسته (السياق التداولي: النص أفعال كلامية).

وأشار الباحث إلى تيار آخر، سماه بتيار السرديين الذي اهتم بمنطق السرد، كما هو الحال عند السيميائيين الذين يمثلهم: كريماص.

الفرع الثاني: محمد المتوكل واللسانيات الوظيفية

يعد أحمد المتوكل المؤسس الفعلي لللسانيات الوظيفية في العالم العربي، بالتوقف عند البعد التداولي التوليدي في العديد من كتبه، ولاسيما في كتابه (الوظائف التداولية في اللغة العربية) (1985م)، و (اللسانيات الوظيفية، مدخل نظري) (1987م)، متأثراً في ذلك بفان ديك وهاليداي على سبيل التمثيل، وقد ركز في مشروعه الوظيفي على الأدوار النحوية، والأدوار الدلالية، والأدوار التداولية.

إذاً، يعتبر أحمد المتوكل من اللسانيين المغاربة المعاصرين الذين درسوا النصوص والخطابات وفق اللسانيات الوظيفية، بربط النص بالوظيفة، والمقام، والمقصدية، والسياق، كما يبدو ذلك جلياً في كتابيه (قضايا اللغة

79 - محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري، ص: 138.

العربية في اللسانيات الوظيفية: بنية الخطاب من الجملة إلى النص)⁸⁰، و(النحو الوظيفي في البحث اللساني)⁸¹؛ حيث اهتم بقضية تنميط الخطابات، مستفيدا من تصورات فان ديك (van Dijk) حول لسانيات الخطاب.

وينطلق أحمد المتوكل من أن الخطاب هو عبارة عن تلفظ وظيفي وتداولي بامتياز، قد يكون كلمة، أو جملة صغرى، أو جملة مركبة، ولكن بغرض التواصل والإبلاغ. ويعني هذا أن "الخطاب ملفوظ يشكل وحدة تواصلية. إلا أن الملفوظ، كي يكون خطابا، يجب أن ينتظم في شكل معين وفقا لقواعد بنيوية معينة. وهذا الشكل إما نص أو جملة أو مجرد كلمة وهي ما يسمى المقولات الخطابية أو أقسام الخطاب.

ولأقسام الخطاب هذه استعمالان اثنان:

إما أن ترد مستقلة تشكل وحدة خطابية قائمة الذات كما هو الشأن في المثال التالي:

- 1- أما خالد، فقد سافر إلى مصر
- 2- شايا!

أو ترد مدمجا بعضها في بعض كأن تدمج الكلمة في المركب والمركب في الجملة والجملة في النص طبقا للسلمية التالية:

نص < جملة < مركب < كلمة.⁸²

ومن هنا، يعامل الباحث النص وفق نحو الجملة على غرار فان ديك وهاليداي. وفي هذا، يقول أحمد المتوكل: "مر بنا أن المناحي التي عرفها النحو الوظيفي

⁸⁰ - أحمد المتوكل: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: بنية الخطاب من الجملة إلى النص، دار الأمان، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2001م.

⁸¹ - أحمد المتوكل: المنهج الوظيفي في البحث اللساني، منشورات الكلمة بتونس، ومنشورات الاختلاف بالجزائر، ومنشورات دار الأمان بالرباط، ومنشورات ضفاف بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 2016م.

⁸² - أحمد المتوكل: المنهج الوظيفي في البحث اللساني، ص: 34-35.

فيما يخص إشكال تقابل الجملة والنص المنحى الذي تتزعمه كرون (1997)⁸³ والقائم على أطروحة وجوب الفصل بين الجملة والنص لعدم تماثلهما البنيوي والتمثيل لخصائصهما، بالتالي ، في قالبين مستقلين، قالب جملة وقالب نص.

وقد بينا في مبحث سابق أن التمييز بين دراسة الجملة ودراسة النص، وإن تم ذلك داخل نفس النحو، لا يبرره مبرر بل إنه يناقض مبادئ معرفية ومنهجية ونظرية.

ويتبين لنا الآن، بعدما ثبت لدينا عن إمكان التوحيد بين الجملة والنص من حيث الهدف والموضوع والمقاربة، أن أفراد قالبين مستقلين للخصائص الجمالية والخصائص النصية لم يعد له أي ورود.⁸⁴

ويرى أحمد المتوكل أن إنتاج الخطاب يمر عبر ثلاثة قوالب رئيسة هي: القالب النحوي التركيبي، والقالب الدلالي، والقالب الوظيفي التداولي. و"إن القوالب الثلاثة، القالب التداولي والقالب الدلالي والقالب النحوي، تعد القوالب الأساسية في عمليتي إنتاج الخطاب وتأويله باعتبارها القوالب التي تشتغل ضرورة في كل من هاتين العمليتين. وقد تضاف إليها عند الحاجة قوالب مساعدة كالقالب الاجتماعي والقالب المعرفي والقالب المنطقي والقالب السياقي (بشقيه الإدراكي والمقالي، أو المقامي والمقالي) التي تمتد منتج الخطاب أو مؤوله بمعلومات إضافية".⁸⁵

ويعني أن هناك تفاعلا بين القوالب المتعددة بل يمكن أن نضيف القالب الشعري، والقالب التخيلي، والقالب الحجاجي.

ويرى أحمد المتوكل أن النحو الوظيفي هو النحو القادر على دمج نحو الجملة ونحو النص ضمن بوتقة تنميطية واحدة. وفي هذا، يقول: "من أنجع الحلول- ولعله أنجعها- الممكن اقتراحها لإشكال انقسام اللسانيات إلى لسانيات جملة

⁸³- Kroon, Caroline: 1997, **Discourse markers, discourse structure and functional grammar**. In: Connolly, Vismans and Gatward (Eds), 70.

⁸⁴- أحمد المتوكل: **المنهج الوظيفي في البحث اللساني**، ص: 47.

⁸⁵- أحمد المتوكل: نفسه، ص: 49.

ولسانيات نص بوجه عام، وإشكال نقل النحو الوظيفي من نحو الجملة إلى نحو نص بوجه خاص، توحيد الدرس اللساني توحيداً يشمل الهدف والموضوع والمقاربة والإطار النظري فيضمن ، بذلك، رفع الحواجز المصطنعة بين أقسام الخطاب الطبيعي وأنماطه، بين الجملة والنص وبين الخطاب العادي وغير العادي. وهو الحل الذي يفي، إضافة إلى ذلك، بمد الجسور، نظرياً ومنهجياً، بين الخطاب اللغوي وأنساق التواصل الأخرى فيتيح مقاربتها جميعاً في إطار نظرية وظيفية عامة واحدة.

إن هذا لا يعني، بالطبع، أنه الحل الأنجع على الإطلاق وإنما يعني فقط أنه قد يكون من أنجع الحلول الممكن اقتراحها في إطار نظرية النحو الوظيفي.⁸⁶

ومن هنا، فقد أسدى أحمد المتوكل خدمات جلى في مضمار لسانيات التداول من جهة، وتحليل الخطاب من جهة أخرى.

الفرع الثالث: عبد الهادي بن ظافر الشهري

يعد السعودي عبد الهادي بن ظافر الشهري من الدارسين التداوليين والحاجيين الذين اهتموا بالخطاب التداولي، كما يتجلى ذلك واضحاً في كتابه (إستراتيجية الخطاب، مقارنة لغوية تداولية) (2004م)⁸⁷؛ حيث تناول فيه مفهوم المنهج التداولي وإستراتيجية الخطاب، بالتشديد على الخطاب والسياق، وذكر العوامل المؤثرة في هذه الإستراتيجية كالسلطة والمقاصد. وبعد ذلك، تطرق الكاتب إلى أنواع الإستراتيجيات، فصنفها إلى: الإستراتيجية التوجيهية، والإستراتيجية التضامنية، والإستراتيجية التلميحية، وإستراتيجية الإقناع، وختم كتابه بذكر آليات الإقناع والحجاج على حد سواء.

وقد ألف عبد الهادي بن ظافر الشهري كتاباً آخر ذا طبيعة تداولية تطبيقية بعنوان (الخطاب الحجاجي عند ابن تيمية: مقارنة تداولية)⁸⁸. ويعني هذا أن الباحث قد درس حجاج ابن تيمية وفق مقارنة سياقية تداولية بامتياز.

⁸⁶ - أحمد المتوكل: نفسه، ص: 53.

⁸⁷ - عبد الهادي بن ظافر الشهري: إستراتيجية الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ، سنة 2004م.

الفرع الرابع: ذهبية حمو الحاج والخطاب التداولي

يمكن الحديث عن كتاب تداولي آخر بعنوان (التداولية وإستراتيجية التواصل) للباحثة الجزائرية ذهبية حمو الحاج؛ حيث ركزت الكاتبة على النظرية التداولية من جهة، ومفهوم التواصل من جهة أخرى. كما تناولت التصريح والتلميح في الإجراء الخطابى والتداولي. فضلا عن توقفها عند التضمين باعتباره إستراتيجية خطابية. وبعد ذلك، تطرقت إلى موضوع الحوار والتفاعل في الخطاب السياسي، والسرد والمجاز في الخطاب السياسي والصحفي⁸⁹. فضلا عن كتابها الآخر (لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب)⁹⁰ الذي تناولت فيه المقاربة التلفظية من جهة، وتداولية الخطاب من جهة أخرى.

الفرع الخامس: حافظ إسماعيل العلوي ومنتصر أمين عبد الرحيم

أشرف الباحثان المغربيان حافظ إسماعيل العلوي ومنتصر أمين عبد الرحيم على إعداد كتاب تداولي بعنوان (التداوليات وتحليل الخطاب)⁹¹، ويضم الكتاب مجموعة من الدراسات القيمة في الحقل التداولي والحجاجي لكل من: أحمد يوسف في (السيمانيات التداولية: من البنية إلى السياق)، ومحمود طلحة في (التداولية وتحليل الخطاب)، ومحمد نجيب العمامي في (مقاربة النص السردي التخيلي من وجهة تداولية: المقامة البغدادية للهمذاني نموذجاً)، وهاجر مدقن في (التشخيص آلية تداولية/ كتاب كليلة ودمنة نموذجاً)، وخليفة الميساوي في (القصدية في الخطاب السجالي)، ونعمان بوقرة في (الخطاب الإعلامي مقاربة تداولية)، وعز الدين المجدوب في

⁸⁸ - عبد الهادي بن ظافر الشهري: الخطاب الحجاجي عند ابن تيمية: مقاربة تداولية، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 2013م.

⁸⁹ - ذهبية حمو الحاج: التداولية وإستراتيجية التواصل، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى 2015م.

⁹⁰ - ذهبية حمو الحاج: لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، دار الأمل للنشر والتوزيع، منشورات مختبر تحليل الخطاب، تيزي وزو، الجزائر، طبعة 2005م.

⁹¹ - حافظ إسماعيل العلوي ومنتصر أمين عبد الرحيم: التداوليات وتحليل الخطاب، إشراف، دار كنوز المعرفة العلمية، عمان، الأردن، الطبعة الأولى سنة 2013م.

(مساهمة في دراسة المشيرات المقامية في القرآن)، وذهبية حمو الحاج في (من اللسانيات إلى اللسانيات التداولية)، إلخ...

الفرع السادس: ريم الهامي

لقد اعتنت الباحثة التونسية ريم الهامي، في كتابها (الاقتضاء وانسجام الخطاب)⁹²، بدراسة مفهوم الاقتضاء التداولي (Présupposition)⁹³ في الجملة من جهة، والخطاب من جهة أخرى، وفق مقاربة لسانية نصية من جهة، ومقاربة تداولية من جهة أخرى. وقد استعانت الباحثة بالمستوى المعجمي، والمستوى التصريفي، والمستوى الاشتقاقي، والمستوى التركيبي. كما استفادت الباحثة من لسانيات النص من جهة أولى، والتداوليات من جهة ثانية، واللسانيات التوليدية من جهة ثالثة.

الفرع السابع: عبد الله صولة وتداوليات الحجاج

تتجلى حجاجية القرآن الكريم، بصفة خاصة، في بناء التركيبية، والأسلوبية، والمعجمية، والبلاغية، واللسانية، والتداولية. وهذا ما يثبته الباحث التونسي عبد الله صولة في كتابه (الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية)؛، حيث يقول: "لقد توافر في القرآن من المعطيات ما جعله خطابا حجاجيا، وما جعل الحجاج يصيب كثيرا من العناصر اللغوية فيه مثل الكلمات والتراكيب والصور، وهي تتكرر فيه تكرارا جعل منها خصائص أسلوبه المميزة..."

إننا ننطلق من فكرة بديهية جدا، وهي أن القرآن خطاب. وكونه خطابا يقتضي أنه إقناع وتأثير. فقد حدد بنفينست الخطاب بقوله: "الخطاب، في أعم مفاهيمه، كل قول يفترض متكلما وسامعا مع توافر مقصد التأثير بوجه من الوجوه في

⁹² - ريم الهامي : الاقتضاء وانسجام الخطاب، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 2013م.

⁹³ - من الأفضل أن تترجم الكلمة بالتضمن.

هذا السامع"⁹⁴. ومما يثبت أنه خطاب كثرة مخاطباته حتى جعلت معرفة هذه المخاطبات في القرآن "علما من علومه".⁹⁵

في موضع آخر، يقول الباحث: "وعلى هذا يكون القرآن كتاب "إصلاح". بمعنى أنه يرمي إلى تغيير وضع قائم. فإذا كان كذلك كان القرآن حجاجا ولا مراء، إذ من تعريفات الحجاج أنه عمل غرضه دائما أن يغير وضعاً قائماً."⁹⁶

بيد أن حجاجية القرآن - حسب عبد الله صولة- حجاجية أسلوبية أكثر مما هي حجاجية جدلية، أو منطقية، أو استدلالية. وفي هذا، يقول الباحث: "إن أسلوب القرآن حامل حجاجا، وحجابه مجسد في أسلوب. ولما كان الأسلوب هو التفرد والتميز والخصوصية، وهي فكرة أسلوبية معروفة وشائعة، فإن الحجاج في القرآن لا يمكن إلا أن يكون حجاجا خاصا به دون غيره من سائر الخطابات. صحيح أن كل خطاب حجاجي بطبيعته كما رأينا، وأن اللغة فيه تكون، بداهة، ذات بعد حجاجي. ولكن من شأن كل خطاب، خصوصا إذا كان خطابا فنيا، أن تحمل الحجاج فيه خصائص أسلوبية تسمه بميسم خاص، وتطبعه بطابع مميز لا يكاد يشاركه فيه غيره."⁹⁷

وقد سبق الباحث التونسي الهادي حمو زميله عبد الله صولة إلى القول بأسلوبية الحجاج القرآني في كتابه (**مواقف الحجاج والجدل في القرآن الكريم**)؛ حيث يقول: "أرى أن تتبع مواضيع الجدل (...) في القرآن، من غير التفات إلى نواحي البلاغة وخصائصها في التعبير القرآني هو ابتعاد عن المنهج القويم، ابتعادا لما فيه من قطع الصلة بين متلازمات في الدلالة المعنوية

⁹⁴ -Emile Benveniste : **Problèmes de linguistique générale**, 1, Editions Gallimard, 1966, p :246.

⁹⁵ -عبد الله صولة: **الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية**، دار الفارابي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية سنة 2007م، ص:41.

⁹⁶ -عبد الله صولة: **الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية**، ص:43.

⁹⁷ -عبد الله صولة: **الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية**، ص:53.

والأسلوبية لما فيه من تفكيك بين عناصر متكاملة في إبراز المواقف الحجاجية".⁹⁸

ويعني هذا أن عبد الله صوله وزميله قد اهتمما بحجاجية الأسلوب في علاقة بالسياق التداولي الذي يستحضر المتلقي أو المخاطب.

الفرع الثامن: أبو بكر العزاوي وحجاجية اللغة

يرى أبو بكر العزاوي أن القرآن خطاب حجاجي وحواري⁹⁹، مادام يستعمل اللغة الطبيعية التي هي، بدورها، حجاجية، مهما كان نوع الخطاب الذي ترد فيه. ويعني هذا أن الحوار له علاقة وطيدة بالحجاج؛ إذ لا يمكن البتة الفصل بينهما. وفي هذا الصدد، يقول الباحث: "إن القرآن الكريم ذو بنية وذو طبيعة حوارية واضحة: فقد اشتمل على معجم حوارى غني (الحوار، التماور، الجدال، المجادلة، الحجاج، الشورى، التشاور...)

وهو مجموعة من الحوارات الصريحة والمضمرة؛ المباشرة وغير المباشرة: بين الخالق والمخلوقات، بين الخير والشر، بين الله عز وجل والملائكة، بين الكفار والمؤمنين، بين المسلمين وأهل الكتاب... إلخ.

...وقد ألف محمد حسين فضل الله كتابا بعنوان (الحوار في القرآن: قواعده وأشكاله ومضمونه)، بين فيه أهمية الحوار في القرآن والإسلام، وأنه من المسائل المهمة في المنطق الإسلامي، باعتباره أسلوبا ديناميا عمليا للوصول إلى الحقيقة ولتكوين القناعات. وبين فيه أيضا أن الحوار كان أسلوب الأنبياء في الدعوة وتبليغ رسالتهم الإلهية إلى الإنسان.¹⁰⁰

ويعني هذا أن الباحث قد اعتنى كثيرا بالحجاج اللساني في علاقة تامة بالمقتضيات السياقية والتداولية.

⁹⁸ - الهادي حمو: مواقف الحجاج والجدل في القرآن الكريم، مطابع النهضة، تونس، طبعة 1981م، ص: 193.

⁹⁹ - انظر: أبو بكر العزاوي: الخطاب والحجاج، الأحمدي للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2007م.

¹⁰⁰ - أبو بكر العزاوي: حوار حول الحجاج، الأحمدي للنشر، الطبعة الأولى 2010، ص: 70.

الفرع التاسع: محمد يونس علي وعلم التخاطب

يعد محمد محمد يونس علي من الباحثين اللسانيين المعاصرين الذين درسوا خطاب أصول الفقه وفق لسانيات التداول، بالجمع بين التداوليات ونظريات التخاطب؛ حيث ركز الباحث في كتابه (علم التخاطب الإسلامي)¹⁰¹ على مجموعة من مفاهيم لسانيات الخطاب كالمقام، والسياق، والمقصدية، وتصنيف الدلالات النصية. ومن هنا، فقد بحث " قضية الوضع والاستعمال، وطرق الدلالة وفق مناهج علماء الأصول المختلفة. وكانت غاية الكتاب معرفة كيفية حصول التفاهم بين المتخاطبين من خلال العناصر التي تسهم في إحداث التخاطب، من وضع واستعمال وقرائن وطرق الدلالة وأنواعها المختلفة، والسياق وما يتعلق به من نظريات. ويشير المؤلف إلى أن جوهر علم التخاطب الذي حاول تقريبه للقارئ من خلال الطرق الدلالية يقوم على القصدية والمرادية، وهو مايؤول القول بأن التفاهم أو التخاطب الناجح لا يحدث إلا إذا أدرك المخاطب مراد المخاطب. وهو بهذا يؤكد العلاقة القائمة بين التداولية والدلالة وأن الأولى مترتبة على الثانية. وهذه نظرة اللغويين للدلالة الذين ينزعون إلى جعل المراد والقصد ضروريا لها، بخلاف نظرة أهل المنطق الذين يعتقدون أن الدلالة هي فهم المعنى سواء أقصده المتكلم أم لا. ويوضح رأي الأصوليين من خلال بعض القواعد المنطقية في علم الأصول، فهم في مسألة المراد والقصد ينكرون وجود دلالة في عزلة عن مقام تخاطبي معين. وفي رأيي أن هذه الدراسة تقدم صورة إجرائية نافعة، كونها تجاوزت مرحلة الوصف إلى التفسير والتحليل وفق الأنماط التركيبية الممتدة في الجملة العربية.¹⁰²

ومن هنا، يصنف الباحث الدلالة إلى صنفين هما: التصنيف العلامي للدلالة، والتصنيف النصي للدلالة. بمعنى أن التصنيف الأول ينقسم إلى دلالة لفظية

¹⁰¹ - علي محمد محمد يونس: علم التخاطب الإسلامي، دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص، صدر عن دار المدار الإسلامي، 2006م.

¹⁰² - محمد بن علي الحضريين الزهراني: علم الدلالة في الدرس العربي، كنوز المعرفة، عمان، الأردن، الطبعة الأولى سنة 2018م، صص: 226-227.

ودلالة غير لفظية وفيما يتعلق بالتصنيف الثاني، فلقد اهتم بتقسيم الشافعية، وتقسيم الأحناف.

ومن ناحية أخرى، فقد استقصى الباحث روح الدلالة في مجموعة من الأبحاث السيميائية، والتداولية، والجهوية، عند أحمد المتوكل، ومازن الوعر، ومنذر عياشي، وغيرهم...

الفرع العاشر: مسعود صحراوي

لقد اهتم الباحث الجزائري مسعود صحراوي بكثير من القضايا التداولية، كاهتمامه بالاستلزام الحوارية، وما يسمى بأفعال الكلام، كما يبدو ذلك واضحا في كتابه **التداولية عند العلماء العرب**، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي¹⁰³؛ حيث توقف عند الخبر والإنشاء من جهة، وأفعال الكلام من جهة أخرى¹⁰⁴. وثمة علاقة وطيدة بين لسانيات النص والتداوليات لاشتراكهما في بعض الظواهر كالمقام، والسياق، والتخاطب، والتواصل، والوظيفة، والمقصدية، والتناص...

ومن جهة أخرى، يبدو البعد الحجاجي، وفق المنظورين اللساني والتداولي، واضحا وجليا عند محمد طروس في كتابه **(النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية)**¹⁰⁵، وجميل حمداوي في كتابه **(التداوليات وتحليل الخطاب)**¹⁰⁶، ورشيد الراضي في كتابه **(المظاهر اللغوية للحجاج)**¹⁰⁷، وهاجر مدقن في كتابها **(الخطاب الحجاجي: أنواعه**

¹⁰³ - مسعود صحراوي: **التداولية عند العلماء العرب**، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في

التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 2005م.

¹⁰⁴ - مسعود صحراوي: **التداولية عند العرب**، دار الطليعة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 2005م.

¹⁰⁵ - محمد طروس: **النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية**، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، طبعة 2005م.

¹⁰⁶ - جميل حمداوي: **التداوليات وتحليل الخطاب**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى 2017م.

¹⁰⁷ - رشيد الراضي: **المظاهر اللغوية للحجاج**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2014م.

وخصائصه¹⁰⁸، ورضوان الرقبي في كتابه (البلاغة والحجاج: بحث في تداولية الخطاب)¹⁰⁹...

وعلى العموم، يمكن القول - بشكل عام ومختصر - إن الدراسات التداولية تتظيرا وتطبيقا قد ازدهرت بشكل لافت في المغرب العربي (المغرب، والجزائر، وتونس) ؛ حيث انطلقت هذه الكتابات النظرية والتطبيقية من خلفيات معرفية متنوعة من حيث المصادر والمراجع والتصورات والرؤى، سواء أكانت تلك المرجعيات والخلفيات فرانكفونية أم أنجلوسكسونية أم عربية قديمة وحديثة ومعاصرة.

المطلب السابع: ملامح تداولية في التراث العربي الإسلامي

لقد اهتم البلاغيون والنقاد والمفسرون، في تراثنا العربي الإسلامي القديم، بكثير من القضايا التداولية ، ولاسيما قضية الخبر والإنشاء، فهي قضية بلاغية وتداولية بامتياز. وكانت الشروح القرآنية والحديثية والأدبية والنقدية مرتبطة بالتفسير والتأويل السياقيين. أي: كانوا يتقيدون بمبدأ التأويل المحلي، بمراعاة أسباب النزول، والاستعانة بظروف النص.

ويعني هذا أن العلماء العرب الأوائل قد اهتموا بدراسة التداول والتخاطب في الشروح والتفاسير والكتابات البلاغية، والنقدية، والفقهية، والأصولية، والكلامية، والفلسفية، ولاسيما الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين)¹¹⁰، وعبد القاهر الجرجاني في كتابيه: (دلائل الإعجاز)¹¹¹ و (أسرار البلاغة)¹¹²،

108 - هاجر مدقن: الخطاب الحجاجي: أنواعه وخصائصه، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، الجزائر، ، الطبعة الأولى سنة 2013م.

109 - رضوان الرقبي : البلاغة والحجاج: بحث في تداولية الخطاب، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى 2018م.

110 - الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة السابعة 1998م.

111 - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد رضوان الداية وفايز الداية، دار الفكر، الطبعة الأولى سنة 2007م.

112 - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تعليق وتحشية: أحمد مصطفى المراغي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، مصر.

والباقلائي في كتابه (إعجاز القرآن)¹¹³، وحازم القرطاجني في كتابه (منهاج البلغاء وسراج الأدباء)¹¹⁴، وابن منظور في كتابه (لسان العرب)¹¹⁵، وابن خلدون في مقدمته¹¹⁶. فضلا عن كتب بلاغية ومدرسية قديمة...

ويبين لنا هذا كله أن اللسانيين والبلاغيين العرب القدامى قد تعاملوا مع الظواهر البلاغية والأسلوبية في سياقه النصي الوظيفي، وضمن وحدة الخطاب الكلية، وإن كان هناك من يدرس الظواهر الأسلوبية والبلاغية والتداولية بطريقة تجزيئية مفككة في كثير من الأحيان، بالتوقف عند جماليات الجملة الواحدة، أو الاهتمام بالأسلوب المستقل المنعزل عن باقي النص.

ومن جهة أخرى، فقد ناقش البلاغيون قضايا تداولية مختلفة، كتوقفهم عند الالتفات في علم المعاني. ومن ثم، يعد الالتفات من أهم الظواهر البلاغية التداولية التي ترتبط بوضعية المتكلم والخطاب والمخاطب على حد سواء. ويقصد به الانتقال من ضمير إلى آخر، كالانتقال من ضمير المتكلم إلى ضمير المخاطب أو الغائب، أو الانتقال من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم والمخاطب، أو الانتقال من ضمير المخاطب إلى ضمير المتكلم والغائب. ومع كل انتقال ضمائري، يتحدد المقطع النصي، وتبرز المتوالية بشكل دقيق وواضح. ويعرف حازم القرطاجني مفهوم الالتفات عند الشعراء القدامى بقوله: "وهم يسأمون الاستمرار على ضمير المتكلم أو ضمير المخاطب، فينتقلون من الخطاب إلى الغيبة، وكذلك أيضا يتلاعب المتكلم بضميره فتارة يجعله ياء على جهة الإخبار عن نفسه، وتارة يجعله كافا أو تاء فيجعل نفسه مخاطبا، وتارة يجعله هاء فيقيم نفسه مقام الغائب، فلذلك كان الكلام المتوالي

¹¹³ - الباقلائي: إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، مصر، طبعة 1963م.

¹¹⁴ - حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 1981م.

¹¹⁵ - ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، مصر، طبعة 1981م.

¹¹⁶ - ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، بيروت، لبنان، بدون تحديد لتاريخ الطبعة.

فيه ضمير متكلم أو مخاطب لا يستطاب، وإنما يحسن الانتقال من بعضها إلى بعض.¹¹⁷

ويسمى الالتفات بالانصراف والاستدراك والتلوين وتغيير المواقع، وهو مرتبط أشد الارتباط بالبلاغة والبيان والأسلوبية وعلم السرد ولسانيات النص. وقد يدل الالتفات على "نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب."¹¹⁸

ويمكن إخراج دلالات مفهوم الالتفات من مجالها البلاغي إلى النص الأدبي، كما يدعو إلى ذلك عز الدين إسماعيل الذي يقول: إن مقولة الالتفات "قد تنبسط دلالتها حتى لتكون باتساع الخطاب الأدبي إطلاقاً، لكنها عندئذ ربما فقدت دلالتها وخصوصيتها."¹¹⁹

وقد يتجاوز الالتفات مقولة الضمائر إلى الصيغ الفعلية، بالانتقال من الماضي إلى المضارع، أو من الماضي إلى الأمر، أو الانصراف من المضارع إلى الأمر والماضي، أو الانتقال من الأمر إلى الماضي والمضارع على حد سواء. كما يشمل الالتفات صيغ الأسماء؛ حيث يتم انتقال المتكلم من المفرد إلى المثنى والجمع، أو من المثنى إلى المفرد والجمع، أو من الجمع إلى المفرد والمثنى.

ويشير الباحث المغربي محمد مشبال إلى أن معيار الالتفات يساعد على تنوع المقاطع الدلالية، وتغير المواضيع في القصيدة العربية القديمة، ولاسيما القصيدة العباسية منها. وفي هذا الصدد، يقول الباحث: "يتخذ أسلوب الالتفات في قصيدة أبي تمام في مدح أحمد بن المعتصم صيغة الانتقال من المخاطب إلى المتكلم. وقد صاحب هذا التغير في الضمائر تحول في موضوع القصيدة؛ وهذه سمة من السمات الأسلوبية في هذا النص قلما تتواتر في نصوص أخرى. وأعني بذلك أنه لا يوجد أي ارتباط ضروري بين تعدد الموضوعات، وتغير

¹¹⁷ - حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ص: 348.

¹¹⁸ - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، الجزء الثالث، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر، ص: 314.

¹¹⁹ - عز الدين إسماعيل: (جماليات الالتفات)، ضمن أعمال الندوة التي أقامها النادي الثقافي بجدة (السعودية)، سنة 1986-1987م حول قراءة التراث النقدي.

الضمائر في النص الشعري القديم؛ فقد دأب الشعراء على تغيير الموضوعات في القصيدة الواحدة، مما أصبح مقوما ثابتا في نمط القصيدة النموذجية. غير أن صياغة أسلوب الالتفات بالصورة تطالعنا في هذه القصيدة، وهي الصورة التي تتناسب وتركيب النص من موضوعين: المقدمة الطليعة الغزلية و غرض المدح، يفيد أن من بين وظائف هذا الأسلوب الإيحاء بتحول في المستوى الدلالي والنفسي للقصيدة.¹²⁰

وهكذا، نرى أن مقولة الالتفات من أهم المعايير البلاغية والأسلوبية والسردية والتداولية ذات الطابع التراثي التي يمكن الالتجاء إليها لتقطيع النصوص والخطابات تقطيعا علميا دقيقا ومضبوطا.

علاوة على ذلك، فقد تناول البلاغيون علم المعاني، وهو مبحث تداولي بامتياز، يدرس الخبر والإنشاء، والفصل والوصل، وأسلوب الحصر والقصر. كما يدرس هذا العلم الإيجاز والإطناب والمساواة، وأسلوب الحكيم...وقد اهتمت به الدراسات البلاغية القديمة، وأشبعته درسا وفحسا. كما اهتمت به الدراسات القرآنية والتفسيرية من جهة أخرى.

وقد أظهر المفسرون والباحثون في علوم القرآن منذ القديم اهتماما كبيرا بالتداوليات بالتوقف عند السياق النصي من جهة، والتأويل السياقي من جهة أخرى، بالتحليل المتأني لسور القرآن الكريم وآياته شرحا، وتوصيفا، وتفسيرا، وتأويلا. وكان هدفهم الرئيس هو تبيان وحدة الكتاب واتساقه وعدم تناقضه. لذا، فقد بحثوا عن مظاهر تماسك النص القرآني وانسجامه، برصد الوسائل اللغوية التركيبية، واستكشاف آليات الانسجام الداخلية والخارجية في علاقة تامة بمقاصد القرآن الكريم وأهدافه المباشرة وغير المباشرة.

إذاً، فقد اهتم العرب بالقرآن؛ فبرز منهم علماء كرّسوا جهودهم لخدمة النص المقدس، وحاولوا بيان وجوه إعجازه، وما تزال مؤلفاتهم شاهدة على ما قدموه في سبيل ذلك، ومن بين الوجوه الإعجازية التوقف عند البيان القرآني من

120 - محمد مشبال: مقولات بلاغية في تحليل الشعر، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى سنة 1993م، ص: 71.

جهة، واستجلاء التماسك الوثيق الذي يربط آيات القرآن ومختلف سورته التي نزلت منجمة على مدار ثلاث وعشرين سنة من جهة أخرى.

ومن هنا، فقد رصدت بعض الدراسات الإعجازية مجمل العلاقات التماسكية بين الآيات والسور ربطاً وترابطاً في علاقة ذلك بالمقاصد الكبرى، وكانت هذه المؤلفات تقدم علاقات تماسكية للنص ترقى إلى ما قدمته اللسانيات النصية المعاصرة، مثل كتاب (الكشاف عن حقائق التأويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) للزمخشري¹²¹، وكتاب (التفسير الكبير) لفخر الدين الرازي¹²²، وكتاب (البرهان في علوم القرآن) للزركشي¹²³، وكتابي (الإتقان في علوم القرآن)¹²⁴ و(تناسق الدرر في تناسب السور) للسيوطي¹²⁵.

وهكذا، فقد تنبه دارسو علوم القرآن إلى علم المناسبة الذي يعد عماد الاتساق والانسجام والتماسك في القرآن الكريم. ونجد هذا الاهتمام أيضاً عند مفسري القرآن الكريم كالزمخشري في كتابه (الكشاف) الذي يحاول ربط آخر الكلام من الآي والسور بالذي تقدم؛ حيث يقول: "فإن قلت: من المأمور بقوله (وبشر) قلت (...). فإن قلت: علام عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولأنه يصح عطفه عليه؟ قلت...".¹²⁶

ويحيل الجواب، في قوله الزمخشري، إلى تحديد السياق المقامي، واستجلاء المناسبة الموجودة بين الآيات والسور القرآنية الكريمة. ومن ثم، فقد كان شراح القرآن الكريم ومفسروه يستعينون بعلم المناسبة وأدوات الاتساق والانسجام

¹²¹ - الزمخشري: الكشاف عن حقائق التأويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 1977م.

¹²² - فخر الدين الرازي: التفسير الكبير، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 1981م.

¹²³ - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة 1980م.

¹²⁴ - السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، دار الفكر، بيروت، لبنان، طبعة 1979م.

¹²⁵ - السيوطي: تناسق الدرر في تناسب السور، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1986م.

¹²⁶ - الزمخشري: الكشاف، الجزء الأول، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 1981م، ص: 290.

لتبيان مدى ترابط القرآن الكريم آيات وسورا دفاعا عن الإعجاز البياني في هذا الكتاب الجليل.

وبناء على ما سبق، يتحقق الترابط والتماسك النصي والخطابي في الذكر الحكيم عند مفسري القرآن الكريم عبر مجموعة من الآليات والوسائل اللغوية والتركيبية والبلاغية والدلالية، مثل: عطف جملة على جملة، وتعدد المعطوف عليه، والإكثار من العطف السببي، والتوقف على الإحالة بواسطة الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة والتكرير، والتركيز على موضوع الخطاب الموحد دلاليا، والعناية ببناء الخطاب وتنظيمه منطقيا ونصيا وخطابيا تماسكا، واتساقا، وانسجاما. علاوة على استكشاف تغير الخطاب وترتيبه، والاهتمام بالعلاقات بين الآيات والسور كعلاقة البيان، وعلاقة الشرح، وعلاقة التفسير، وعلاقة التوضيح، وعلاقة التأكيد، وعلاقة التشريع، وعلاقات العموم والخصوص، وعلاقة الإجمال والتفصيل، وعلاقة المناسبة والتناسب، وعلاقة الآيات والسور بالمعاني والمقاصد القريبة والبعيدة، أو المباشرة وغير المباشرة.

وهكذا، يتبين لنا أن المفسرين وعلماء القرآن، في الحقل الثقافي العربي القديم، قد كانوا مدركين أيما إدراك لعمليات الربط والترابط والتماسك والاتساق والانسجام والتلاحم في الكتاب العزيز آيات وسورا، وقد تناولوا ذلك إما نحويا (روابط الإحالة)، وإما دلاليا ومعجميا (التكرير، وموضوع الخطاب، وبناء الخطاب)، وإما تداوليا (السياق والمناسبة)، وإما في شكل علاقات نصية وخطابية (البيان والتفسير، والإجمال والتفصيل، والعموم والخصوص).

وينطبق هذا الشيء نفسه على البلاغيين والمفسرين وعلماء أصول الفقه وعلماء الدراسات القرآنية العرب والمسلمين الذين درسوا مظاهر الاتساق والانسجام في القرآن الكريم شرحا، وتفسيرا، وتأويلا، بالتوقف عند التناسب أو المناسبة الداخلية والخارجية، وتبيان دور أسباب النزول في تماسك السور القرآنية الكريمة، ودراسة السياق التداولي القرآني الجزئي والكلي، أو السياق الأصغر والأكبر، والتركيز على علاقة السابق باللاحق، والتوقف عند

مقتضى الحال الذي يجمع بين المقال والمقام، واستجلاء المقاصد القرآنية في بناء النصوص والخطابات، واستكشاف مختلف العلاقات النحوية والدلالية بين الآيات القرآنية، ودراسة الوصل والفصل، أو الربط والقطع، والتركيز على النظم في القرآن الكريم، والتعرف إلى ترتيب الآيات والسور، واستحضار الإحالة الداخلية والخارجية للآيات والسور القرآنية الكريمة، إلخ...¹²⁷

وخلاصة القول، لقد أسدى علماء التفسير من جهة، وعلماء القرآن الكريم من جهة أخرى، خدمات جلى إلى القرآن الكريم، من خلال اهتمامهم بمظاهر التداول في الذكر الحكيم آيات وسورا، بالانتقال من المستوى التركيبي والنحوي، مروراً بالمستوى الدلالي، وانتقالاً إلى المستوى التداولي الوظيفي. ويعني هذا أنهم قد اهتموا بالتداوليات، بالتوقف عند السياق النصي، وقضية المناسبة، وقضية أدوات الربط، والاهتمام بعمليات الترابط المعنوي، ودراسة بنية القرآن في علاقة وطيدة بمعاني الكتاب ومقاصده المباشرة وغير المباشرة.

وهكذا، يتبين لنا أن العلماء العرب القدامى قد اهتموا بقضايا النص والخطاب، بالتوقف عند بعض المباحث كالفصل والوصل، والالتفات، والإطناب والمساواة والإيجاز، والبيان الحقيقي والمجازي، والمحسنات البديعية. وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على إدراكهم المبكر لقضايا الوحدة والربط والترابط والتماسك النصي. دون أن ننسى عنايتهم الكبرى بقضايا بلاغية أخرى تتدرج ضمن لسانيات النص التداولي كالمقام، والسياق، والتداول، والتخاطب، والتواصل، ومقتضى الحال، والخبر والإنشاء...

ومن جهة أخرى، فقد تضمن الخطاب الأصولي، في ثقافتنا العربية القديمة، ملامح تداولية وتخطبية جلية، كما يتبين ذلك جلياً في مبحث الدلالات والمقاصد بصفة خاصة، كمفهوم عبارة النص، ودلالة النص، وإشارة النص، واقتضاء النص.

¹²⁷ - انظر: رحيم مجيد راضي: الانسجام النصي في القرآن الكريم (الميزان في تفسير القرآن للسيد الطباطبائي أنموذجاً)، رسالة جامعية بإشراف جابر محيسن عليوي الركابي، كلية الآداب، جامعة ذي قار، العراق، الموسم الجامعي 2014م.

ويعني هذا أن علم أصول الفقه قد تناول انسجام النص في مبحث الدلالات، وقد ركز على سياق الخطاب القرآني " من إيماء، وإشارة، وتببيه، وفحوى، ومفهوم... وأمثال ذلك من المسائل التي فانت علم النحو، وحفل بها علما المعاني والأصول. ويضاف إلى ذلك الظواهر والعلاقات الدلالية في نصوص القرآن والسنة، والتي يحكمها قانون التقابل، كذلك التي وضعوها تحت عناوين: العام والخاص، والمقيد والمطلق، والمحكم والمتشابه، والمجمل والمفصل... إلخ.

وهذا النوع من البحث اللغوي هو أقرب ما يكون ، في مستواه الإجرائي، إلى المنهج البنيوي الحديث.¹²⁸

ومن جهة أخرى، فقد اهتم الأصوليون القدماء بمجموعة من القضايا النحوية ذات الطبيعة الأصولية برؤية جديدة في بعض الأحيان، أو برؤية لا تخرج عن المعتاد عند النحاة. وفي هذا، يقول مسعود صحرأوي: " ويشمل القضايا والمسائل النحوية كما تصورهما الأصوليون وخالفوا بها آراء النحاة المعتادة أو وافقوها، واهتدوا إلى كثير من الحلول الموفقة والناضجة لبعض المسائل النحوية، ولاسيما تلك التي فانت النحاة. وقد اعتبر بعضهم نحو الأصوليين هذا نحو دلالة، كما بحث فيها بعض المعاصرين¹²⁹، من أبرزهم مصطفى جمال الدين.¹³⁰

بيد أن ما يتميز به الأصوليون هو اهتمامهم بالسياق، والمقصدية، ودراسة المقام التداولي ، ودراسة الخبر والإنشاء ليس بمفهوم علم المعاني، بل بالمفهوم التداولي الوظيفي والتخاطبي. وفي هذا الصدد، يقول مسعود صحرأوي: " النوع الثالث: والذي قلما يعنى به الدارسون، وهو ما يمكن تسميته بالمنحى التداولي في البحث الأصولي، ونعني به كيفية استثمارهم للمفاهيم والمقولات التداولية كنظرية الأفعال الكلامية التي بحثوها ضمن نظرية الخبر والإنشاء،

¹²⁸ - مسعود صحرأوي: التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 2005م، ص: 131.

¹²⁹ - مصطفى جمال الدين: البحث النحوي عند الأصوليين، المكتبة الوطنية، بغداد، العراق، الرقم 1485، السنة 1980م، ورقة 305.

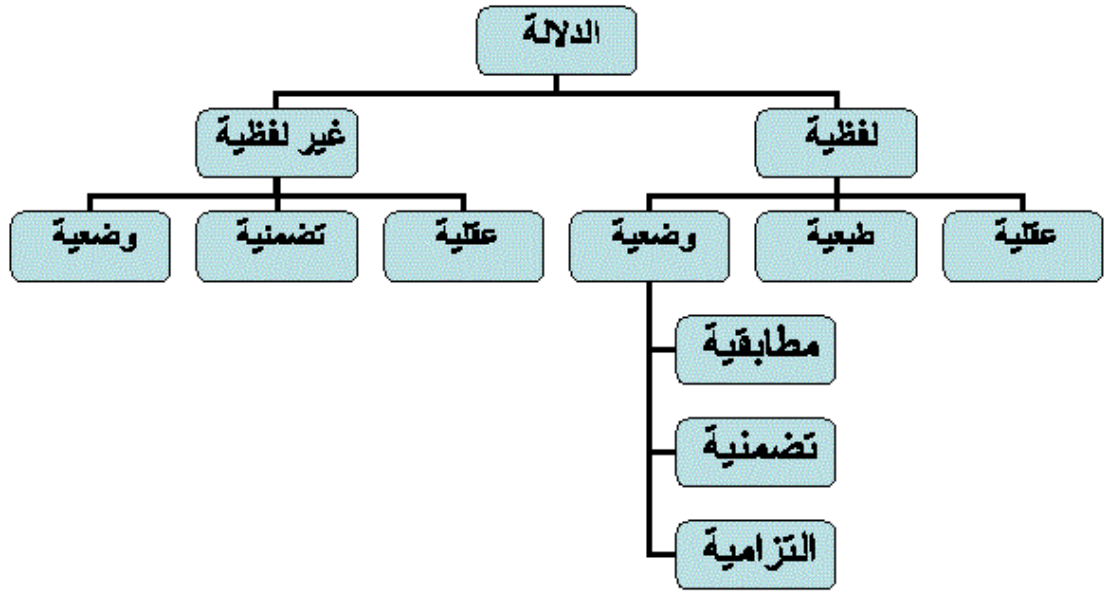
¹³⁰ - مسعود صحرأوي: التداولية عند العلماء العرب، ص: 131.

أثناء بحثهم عن الدلالات وعن الطرق التي يتخذها النص لإفادة معنى أو لصناعة أفعال دينية- فردية كانت أو اجتماعية- بالكلمات، وكيفية تعاطيهم بالأساليب اللغوية والأغراض الإبلابية التواصلية المنبثقة عنها. وقد توصل الأصوليون إلى اكتشاف ووضع أفعال كلامية فرعية جديدة منبثقة عن الأفعال الكلامية الأصلية، لم يتعرض لها المعاصرون إذ لم تعرفها الثقافة الغربية المعاصرة.

ويبدو أن الأصوليين، من هذه الجهة التداولية، قد استأثروا بالبحث في ما فرط فيه كثير من النحاة، وذلك من جراء فهمهم لطرق تأليف الكلام وأوجه استعمالاته وإدراك مقاصده وأغراضه، وما يطرأ عليه من تغيير ليؤدي معاني متعددة، ومن ذلك: بحثهم في ظاهرة الأفعال الكلامية (ضمن نظرية الخبر والإنشاء)، وكمرعاة قصد المتكلم وغرضه، وكمرعاة السياق اللغوي وغير اللغوي وتحكيمه في الدلالات... إلخ. بل إن البحث الأصولي قد يفضل في بعض جوانبه ما قدمه علم المعاني¹³¹

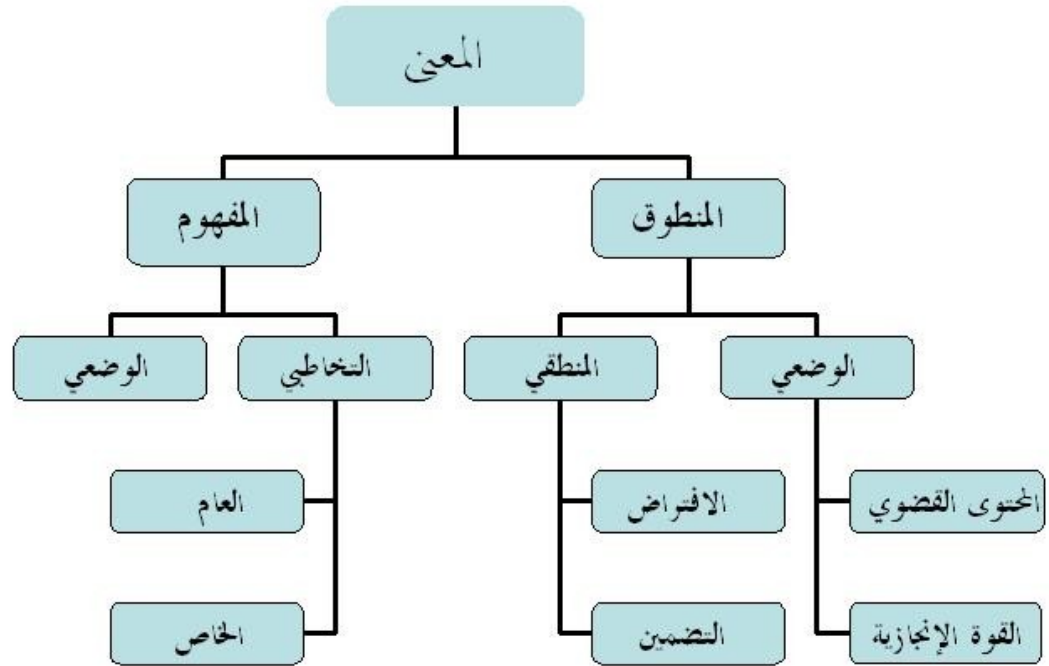
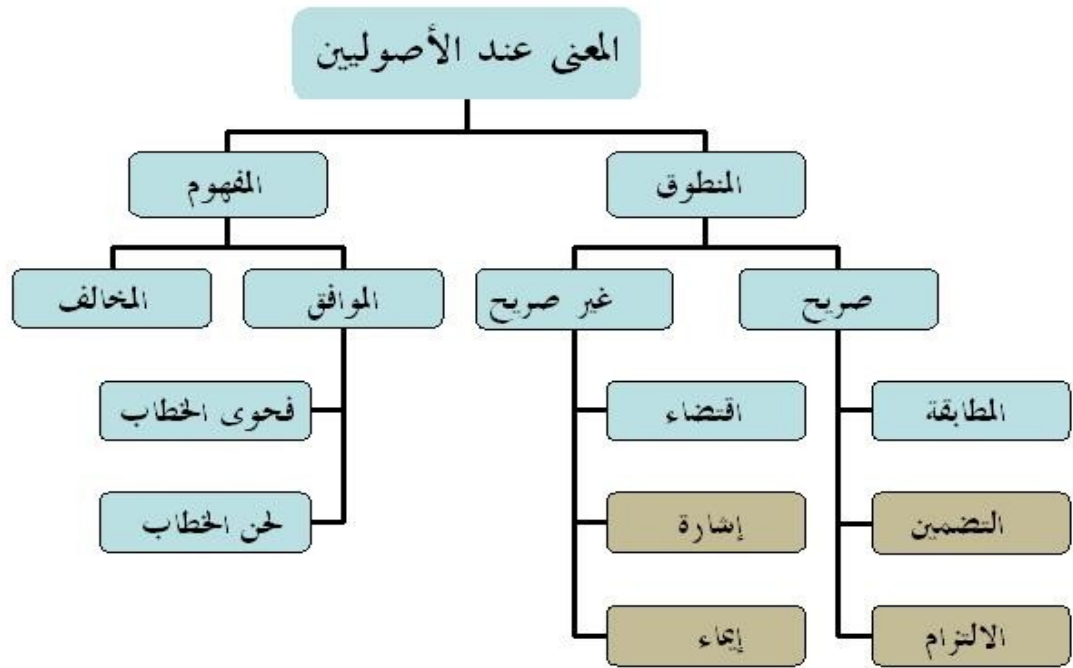
ومن هنا، فقد اهتم الأصوليون بالدلالات السيميائية والشرعية والتداولية اهتماما كبيرا، وقسموا الدلالة إلى دلالة لفظية وغير لفظية. وتتفرع الدلالة اللفظية إلى دلالة عقلية، وطבעية، ووضعية. وتتقسم الدلالة الوضعية إلى دلالة مطابقة، ودلالة تضمينية، ودلالة التزامية. في حين، تتفرع الدلالة غير اللفظية إلى دلالة عقلية، وتضمنية، ووضعية.

¹³¹ - مسعود صحرأوي: نفسه، صص: 131-132.



كما اعتنى الأصوليون القدماء بدلالات المنطوق والمفهوم. وتتحقق دلالة المفهوم بالنطق المباشر على الحكم، أو مادل عليه اللفظ في محل النطق، ويتحقق ذلك بالتضمن، والمطابقة، والالتزام، وتسمى بالدلالة اللفظية. ومن ثم، فهي تشمل دلالة العبارة، ودلالة الإشارة، ودلالة الاقتضاء عند الحنفية. في حين، يقصد بالمفهوم مادل عليه اللفظ تلميحا وليس تصريحاً، ويسمى هذا بالدلالة المعنوية، أو الدلالة الالتزامية، وهو نوعان: مفهوم الموافقة¹³² ومفهوم المخالفة.

¹³²- يسمى أيضاً بدلالة النص عند الحنفية، أو فحوى الخطاب.



ولعل " علماء أصول الفقه الإسلامي هم أول من اهتم بتصنيف المعنى، وتفريعه، والتفريق بين أنواعه المختلفة؛ ولذا كان من المناسب أن نختار أحد أبرز المحاولات التي صنفت المعنى أصنافاً مختلفة؛ لتكون نموذجاً يمثل وجهة نظر الأصوليين في تقسيم المعنى، وهي محاولة ابن الحاجب.¹³³

¹³³ - محمد محمد يونس علي: **مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب**، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بنغازي، ليبيا، الطبعة الأولى 2004م، ص: 53.

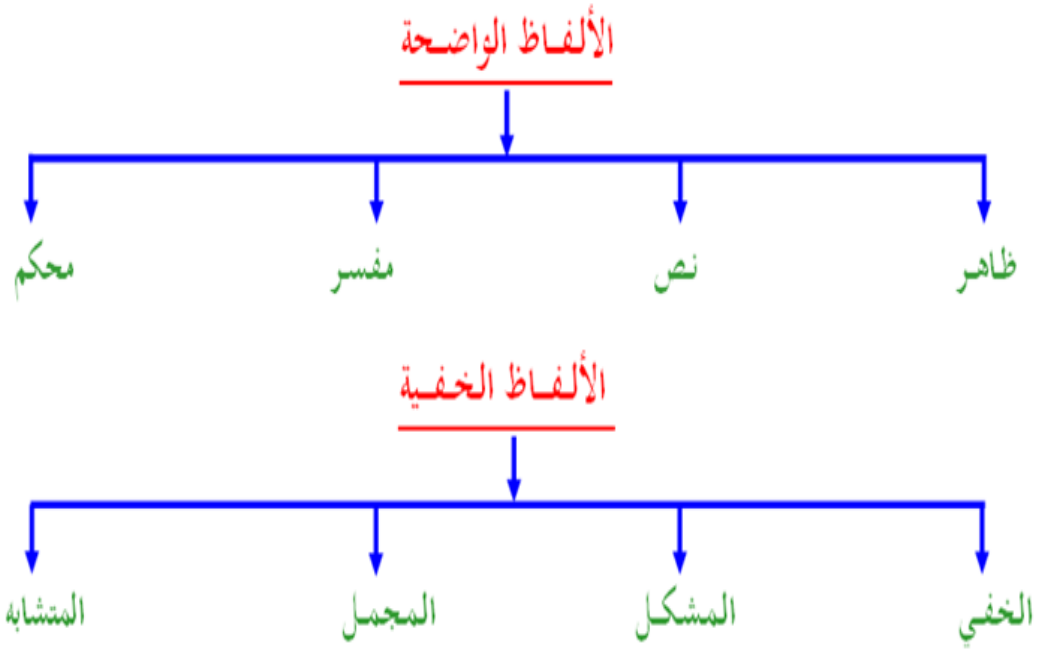
ومن هنا، يصنف ابن الحاجب¹³⁴ المعنى أو الدلالة إلى المنطوق والمفهوم. ويتفرع المنطوق إلى الصريح وغير الصريح، ويتفرع الصريح إلى المطابقة والتضمن. في حين، ينقسم المفهوم إلى الموافقة والمخالفة.

إذاً، " يرى ابن الحاجب أن كل المعاني تدخل في نطاق المنطوق الصريح أو غير الصريح إلا مفهومي الموافقة والمخالفة، فهما يدخلان في نطاق المفهوم. ويقصد بالمنطوق الصريح المعنى الوضعي الذي يشمل دلالاتي المطابقة، والتضمن. أما المنطوق غير الصريح، فيقتصر على ضرب من دلالة الالتزام، تلك التي لاتوافق، ولا تخالف معنى المنطوق، فإن دلت على أحد هذين المعنيين فهي من قبيل المفهوم، ولاتعد من المنطوق، ومن هنا يمكن استنتاج أن بعض اللوازم يدخل في دلالة المفهوم، وهو ما وافق أو خالف المنطوق، وبعضها يدخل في المنطوق غير الصريح، وهو ما لم ينطبق عليه هذا الشرط. وما ذهب إليه ابن الحاجب في قصره المفهوم على مفهومي الموافقة، والمخالفة مخالف للرأي المشهور عند علماء أصول الفقه. وهذه النقطة ينبغي الوقوف عندها لأنها هي التي تميز بوضوح رأي ابن الحاجب معياراً دقيقاً للتفريق بين المنطوق، والمفهوم يبدو أنه مأخوذ من إمام الحرمين الجويني (ت 478هـ، 1058م)."¹³⁵

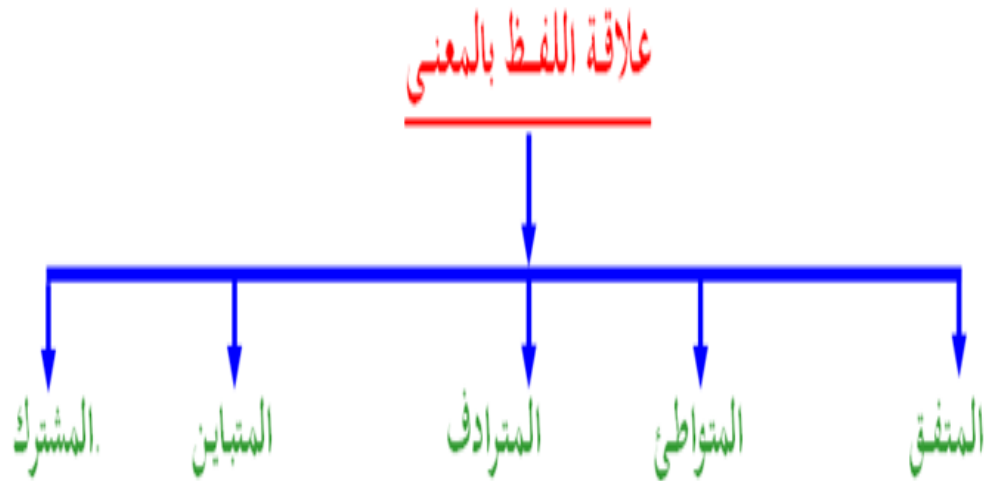
ومن جهة أخرى، يمكن الحديث عن واضح الدلالة، ومبهم الدلالة. ومن هنا، ينقسم الواضح الدلالة إلى الظاهر، والنص، والمفسر، والمحكم. وينقسم المبهم الدلالة إلى الخفي، والمشكل، والمجمل، والمتشابه.

¹³⁴ - ابن الحاجب: مختصر المنتهى الأصولي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1983م.

¹³⁵ - إمام الحرمين أبو المعالي الجويني : البرهان في أصول الفقه، تحقيق عبد العظيم الديب، قطر، طبعة 1299هـ.

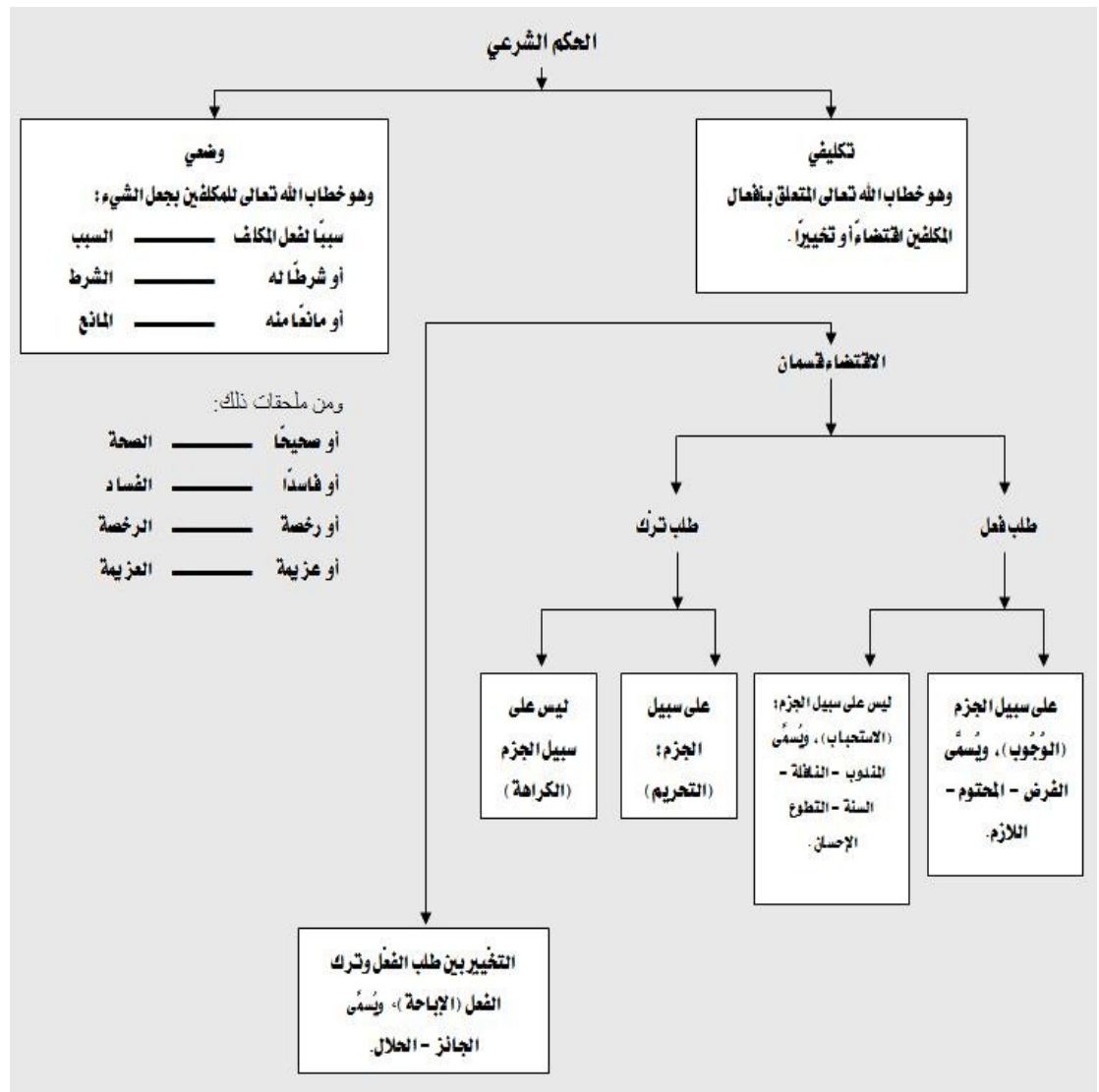


أما علاقة اللفظ بالمعنى، فيمكن الحديث عن علاقة المتفق، وعلاقة المتواطئ، وعلاقة المترادف، وعلاقة المتباين، وعلاقة المشترك.



وينقسم اللفظ الأصولي أيضا ، من حيث الشمول ، إلى الكلي والجزئي ، و العام، والخاص، و المشترك. وهناك أيضا الحقيقي والمجاز ، والصريح والكناية. وهناك أيضا المطلق والمقيد، والخاص والعام...

ومن جهة أخرى، فقد اهتم الأصوليون بالأحكام التكليفية ، فتوقفوا عند مجموعة من الصيغ التشريعية، مثل: الصيغ الدلالية التي تفيد الوجوب، والصيغ الدلالية التي تفيد الندب، والصيغ الدلالية التي تفيد الإباحة، والصيغ الدلالية التي تفيد الكراهية، والصيغ الدلالية التي تفيد التحريم.



فضلا عن الصيغ الدلالية الدالة على الأحكام الوضعية كالسبب، والشرط، والمانع، والرخصة والعزيمة، والصحة والبطلان. وترتبط هذه الصيغ الدلالية أيضا بمصادرها التشريعية المتفق عليها (القرآن، والسنة، والإجماع،

(والقياس)، أو بمصادرها التشريعية المختلف عليها (الاستحسان، واستصحاب الحال، والمصلحة المرسلة، والعرف، وشرع من قبلنا، ومذهب الصحابي).

وهكذا، يتبين لنا أن علم أصول الفقه عند علمائنا المسلمين قد ركز كثيرا على مفهوم النص إشارة، وعبرة، واقتضاء، ونطقا، ومفهوما. واعتنى بمبحث الدلالات عناية كبرى؛ لما يقدم هذا المبحث من آليات أصولية مهمة لاستنباط الأحكام الشرعية من القرآن والسنة.

وأكثر من هذا فقد تناولت التداوليات الأصولية علاقات أصولية متنوعة، مثل: علاقة الموافقة، وعلاقة المخالفة... كما اهتم هذا العلم بمقاصد النص الشرعي كالضروريات، والحاجيات، والتحسينات. ويعني هذا ربط النص أو الحكم الشرعي بالمقصدية الشرعية القريبة والبعيدة، أو الأخذ بمبدأ التعليل من جهة، وتمثل مبدأ الحكمة من جهة أخرى. وبهذا، يقترب هذا العلم من لسانيات النص على مستوى ربط النص أو الحكم الشرعي بالمعاني والدلالات من جهة، أو ربط الخطاب المنطوق بالمقاصد والمقام والسياق من جهة أخرى.

وعليه، فقد اهتم الأصوليون بالتداوليات عندما ربطوا دلالات النص بمقاصدها المباشرة وغير المباشرة. وهنا، يمكن الإشارة إلى وجود ثلاث مقاربات اجتهادية ومنهجية في حقل العلوم الإسلامية بصفة عامة، وفي حقل علم أصول الفقه بصفة خاصة، وهي:

أولا، المقاربة الظاهرية أو اللفظية التي تعنى بدراسة الظاهر النصي، دون التغلغل في المعاني الباطنية وتأويلها تأويلا مقصديا. بمعنى أنها تكتفي بظواهر النصوص مخافة من التأويل والانحراف عن دلالات النص الشرعي، على أساس أن التأويل هو هوى ذاتي، وتحيز مذهبي أو إيديولوجي، وانزلاق عن حكمة الشريعة الإسلامية.

ثانيا، المقاربة التقويلية، وعملها هو تأويل النصوص الشرعية، بتجاوز الظاهر نحو الباطن، ولكنها لا تؤول النصوص وفق شريعة الإسلام، بل تؤولها

وفق أهواء أصحابها، وحسب منازع الذات، ووفق الاقتناعات المذهبية، والفكرية، والفلسفية، والسياسية.

ثالثاً، المقاربة الاجتهادية المقاصدية التي تدرس الأحكام الشرعية وفق مقاصد الشارع من جهة، وفي ضوء مقاصد المكلف من جهة أخرى. بمعنى أن هذه المقاربة الاجتهادية تحتكم إلى المقاصد العامة والعالية والخاصة والجزئية، وتميز بين الوسائل والمقاصد.

ومن هنا، فالمقاربة المقاصدية مقارنة تداولية وتخطبية وسياقية و استقرائية بامتياز، تهدف إلى استكشاف مختلف المقاصد العالية والعامة والخاصة والجزئية من مختلف النصوص القرآنية والنبوية، سواء أكانت تلك المقاصد والعلل والأغراض صريحة أو مضمرة، معلنة أو متوارية. ويعني هذا أن جميع النصوص القرآنية والنبوية مقترنة بهدف أو حكمة أو مصلحة أو مقصد تشريعي معين أو مقصود، لا بد من التوقف عنده بغية استكشافه بواسطة الاجتهاد المقاصدي الصريح والمضمر. لذا، لا بد للمجتهد من البحث عن المقاصد الصريحة والمتوارية من أجل تفسير الآيات والنصوص الشرعية، وفهم الأحكام الشرعية وتعليلها. ومن هنا، لا بد من تجاوز الظاهر، وعدم الاكتفاء بما هو لفظي ولغوي وبياني، بالانتقال إلى البحث عن علل الأحكام، ورصد مقاصدها عن طريق الاستنباط، واستكشاف العلل، ودراسة الوسائل والمقاصد، والبحث عن المصالح المرسلة، والاستحسان، واستصحاب الحال، وسد الذرائع وفتحها، وهذا كله من أجل استكشاف المقاصد العامة والجزئية والخاصة.

ومن هنا، يستند الاستقراء المقاصدي إلى مبدأ الاستقصاء التام، وتحصيل أكبر عدد ممكن من الأمثلة والشواهد والنماذج، والاستدلال من الخاص نحو العام، والانطلاق من الجزء نحو الكل، وتكرار عملية العد والإحصاء، وإصدار القانون، وتعميم القواعد والنظريات.

ومن جهة أخرى، فقد تنبه النحاة العرب القدماء إلى السياق الوظيفي والتداولي واللسني، وما له من أهمية ودور في بناء الجمل وتركيبها، وربطها بالمعنى والوظيفة والمقصدية المباشرة وغير المباشرة.

" إن ما سقناه من أدلة على إدراك اللغويين العرب القدماء للسياق بشقيه: اللغوي وغير اللغوي يجعلنا نقف وقفة إكبار لما توصل إليه الفكر العربي

آنذاك من تطور ورقي علمي جعل منه رائدا لدراسات أصبحت اليوم نظريات اشتهرت في العالم الغربي، ومن غير المستبعد أن يكون هذا التراث الذي خلفه العرب المعين الذي استقى منه فيرث نظريته، ولا سيما أنه قد عمل سنوات عديدة في قسم اللسانيات في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية، فمن غير المستبعد أن يكون قد اطلع على قسم كبير من التراث اللساني العربي وتأثر به. وعلى كل حال فأقصى ما يمكن أن نعترف به فضلا للنظرية السياقية الحديثة هو وضع الإطار النظري لها وإخراجها على أسس منهجية متكاملة.¹³⁶

وقد أثبت أحمد المتوكل، في كتابه (المنهج الوظيفي في البحث اللساني)، أن العرب القدماء قد تعرفوا إلى المقام في علاقته بالمقال. وفي هذا، يقول: " مفهوم المقام مجموعة العناصر التي تتوافر في موقف تخاطبي معين وأهمها زمان التخاطب ومكانه وعلاقة المتكلم بالمخاطب وخاصة الوضع التخاطبي القائم بينهما، أي مجموعة المعارف التي تشكل مخزون كل منهما أثناء عملية التخاطب.

إلى هذا التعريف العام، يمكن أن نرجع مختلف المصطلحات الواردة في علوم اللغة العربية كمصطلحي مقتضى الحال وقرائن الأحوال مثلا.

قد انتبه اللغويون العرب القدماء، خاصة منهم علماء البلاغة، إلى أهمية العناصر المقامية بالنظر إلى المقال وتحديد خصائصه.¹³⁷

وهكذا، يبدو لنا أن المقام والسياق يقومان بدور مهم في فهم انسجام الجمل، وإدراك اتساق العبارات التلفظية في إطار النحو العربي القديم.

يرتبط التركيب والنحو عند النحاة العرب القدامى بالمعنى ومقصدية المتكلم في تركيب جملة لكي يفهمها السامع أو المخاطب. بمعنى أن التراكيب النحوية

¹³⁶ - هدى صلاح رشيد: تأصيل النظريات اللسانية الحديثة في التراث اللغوي عند العرب، منشورات دار الأمان بالرباط، وضاف ببيروت، ومنشورات الاختلاف بالجزائر، الطبعة الأولى سنة 2015م، ص: 348.

¹³⁷ - أحمد المتوكل: المنهج الوظيفي في البحث اللساني، منشورات دار الأمان الرباط، ومنشورات الاختلاف بالجزائر، ومنشورات ضفاف بيروت، الطبعة الأولى 2016م، ص: 506.

تتغير أبنيتها الصرفية والنحوية بتغير المعنى. وقد كان سيبويه حريصا على ربط التركيب النحوي المجرد بالمعنى ومقصدية المتلفظ من أجل بناء الجملة أو النص أو الخطاب على أسس نحوية مترابطة ومتماسكة وظيفيا . وفي هذا، يقول سيبويه: " فالمبتدأ كل اسم ابتدئ ليبنى عليه كلام. والمبتدأ والمبني عليه رفع. فالابتداء لا يكون إلا بمبني عليه. فالمبتدأ الأول، والمبني مابعده عليه؛ فهو مسند ومسند إليه.

واعلم أن المبتدأ لا بد أن من أن يكون المبني عليه شيئا هو هو، أو يكون في مكان أو زمان. وهذه الثلاثة يذكر كل واحد منهما بعد ما يبتدأ.

فأما الذي يبني عليه شيء هو هو فإن المبني عليه يرتفع به كما ارتفع هو بالابتداء. وذلك قولك (عبد الله منطلق)؛ ارتفع (عبد الله) لأنه ذكر ليبنى عليه المنطلق، وارتفع المنطلق لأن المبني على المبتدأ بمنزلته.

وزعم الخليل أنه يستفتح أن يقول (قائم زيد)، وذاك إذا لم تجعل قائما مقدما مبنيا على المبتدأ، كما تؤخر وتقدم فتقول (ضرب زيدا عمرو)، و(عمرو) على (ضرب) مرتفع، وكان الحد أن يكون مقدما، ويكون زيد مؤخرا. وكذلك قولك (تميمي أنا) و(مشوء من يشنؤك) و(رجل عبد الله) و(خز صفتك).

فإذا لم يريدوا هذا المعنى، وأرادوا أن يجعلوه فعلا كقوله (يقوم زيد) و(قام زيد) قبح، لأنه اسم. وإنما حسن عندهم أن يجري مجرى الفعل إذا كان صفة جرى على موصوف، أو جرى على اسم قد عمل فيه؛ كما أنه لا يكون مفعولا في (ضارب) حتى يكون محمولا على غيره، فتقول (هذا ضارب زيدا) و(أنا ضارب زيدا)، ولا يكون (ضارب زيدا) على (ضربت زيدا) و(ضربت عمرا). فكما لم يجز هذا كذلك استقبحوا أن يجري مجرى الفعل المبتدأ، وليكون بين الفعل والاسم فصل، وإن كان موافقا له في مواضع كثيرة. فقد يوافق الشيء الشيء ثم يخالفه لأنه ليس مثله.¹³⁸

¹³⁸ - سيبويه: الكتاب، الجزء الأول، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى 1316هـ، ص: 278.

إذاً، يختلف التركيب النحوي والحالات الإعرابية المتنوعة من سياق إلى سياق آخر، وباختلاف المعنى الذي يريده المتكلم أن يوصله إلى السامع المخاطب. وما ينطبق على الجملة النحوية ينطبق كذلك على الخطاب الذي تتغير معانيه باختلاف التراكيب النحوية، وكذلك بتنوع بنى الجمل التي تكون متماسكة ومترابطة ضمن النسيج النصي.

ومن جهة أخرى، إذا كانت " مراعاة قواعد النحو أحد عناصر تحقق التماسك النص، فإن عبد القاهر كان يدعو إلى توخي معاني النحو بين معاني الكلمات، والجمل من أجل خلق الانسجام بين أجزاء النص. ومن ثم يكون عبد القاهر صاحب انطلاقة شمولية تتوجه إلى البنية الكبرى المتمثلة في بنية النص.

وقيمة هذه الملاحظة التي كان عبد القاهر سباقا إليها تتبع من كونها تلنقي مع ما أقرته اللسانيات النصية الحديثة وما أثاره فان ديك (Van Dijk) من ضرورة دراسة العلاقة التي تنشأ بين الجمل، وتضع الجمل المترابطة بعلاقات نحوية ومنطقية في نسق يجعل منها كلا متماسكا.

وهذا ما جعل عبد القاهر يميز بين النظم وسوء النظم فقال: " وما وصفوه بفساد النظم، وعابوه من جهة سوء التأليف، أن الفساد والخلل كانا من تعاطي الشاعر ماتعطاه في هذا الشأن على غير الصواب، وصنع في تقديم أو تأخير أو حذف أو إظهار أو غير ذلك مما ليس له أن يصنعه، ومالا يسوغ، ولا يصنع على أصول هذا العلم"

وهذا تتبه مبكر منه إلى التماسك وسبل تحقيقه في النص، ولعله بهذا يلتقي مع هاليداي الذي ذهب إلى أن هناك علاقات معينة إذا توافرت في النص تجعل أجزاءه متآخدة، مشكلة كلا واحداً. قال: " فكل عبارة تمتلك بعض أشكال التماسك عادة مع العبارات السابقة مباشرة، ومن جهة ثانية كل عبارة تحتوي على رابطة واحدة تربطها بما حدث قبلاً".

وتبقى كل هذه الأقوال والحقائق التي تنبه إليها القدماء عبارة عن نظرات عامة لوجوب التئام النص وتلاحم أجزائه بنث بين أفكارهم وملاحظاتهم، ولم توضع في إطار نظرية مستقلة كما هي عليه في الدرس اللساني الغربي اليوم.¹³⁹

ومن هنا، يتبين لنا أن النحاة العرب القدامى لم يتعاملوا مع التراكيب النحوية بطريقة شكلية مجردة، بل تعاملوا معها وفق البنى الدلالية، والوظيفية، والسياقية، والتداولية.

وعليه، فقد "اهتم كثير من نحائنا القدامى بالمبادئ التي تعد عند المعاصرين أسسا تداولية، كمرعاة قصد المتكلم، أو غرضه من الخطاب، ومراعاة حال السامع ضمن ما أطلقوا عليه مصطلح الإفادة، وهي الفائدة التي يجنيها المخاطب من الخطاب، والسياقات التي ينتج ضمنها الكلام، ومدى نجاح التواصل اللغوي..."

أما الفرق بين الإفادة والغرض، فهو أن الإفادة ألصق بالمخاطب وما يجنيه من فائدة تواصلية من خطاب المتكلم، وأما الغرض فمتعلق بالمتكلم أي بالقصد والغاية اللذين يرمي إلى تحقيقهما؛ فالمتكلم والمخاطب هما الطرفان الأساسيان في عملية التواصل.¹⁴⁰

ويعني هذا أن النحاة العرب قد طبقوا التداوليات في دراسة الملفوظات اللغوية؛ إذ ربطوها بوظيفة الفهم والإفهام والإبانة، وتحصيل المعنى والإفادة، ومراعاة المقام التخاطبي، والتنبيه إلى السياق التداولي. ومن ثم، "ييدي جمهور النحاة العرب منذ عصر سيوييه، ولأسيما النحويين الكبيرين عبد القاهر الجرجاني والرضي الإستراباذي، عناية كبيرة بالارتباط التداولي بين الأسلوب-خبرا كان أم إنشاء- وبين معناه الإبلاغي ووظيفته التواصلية، مع حرصهما القوي والمتكرر على الاهتمام بالمعاني والأغراض الإبلاغية المتوخاة من الخطاب، وإصرارهما على أن البنى التركيبية تابعة للوظيفة التواصلية وليس العكس. فسلكا منهاجا تداوليا في تحليل الظواهر البنيوية والتركيبية؛ كظواهر التقديم

¹³⁹ - هدى صلاح رشيد: نفسه، ص: 343-344.

¹⁴⁰ - مسعود صحراوي: نفسه، ص: 185-186.

والتأخير، والتعيين، والإثبات، والنفي... والتي لاتعدو أن تكون أغراضا وغايات تواصلية يسعى المتكلم إلى تحقيقها. وأما بلغة المعاصرين، فهي أفعال كلامية طالما أنه يراد بها تخصيص الخطاب، أو الحرص على تضمين الخطاب فائدة تواصلية معينة، أو تنبيه المخاطب، أو تأكيد الرسالة الإبلابية له، أو نداءه، أو إغراءه، أو تحذيره، أو توبيخه... وهذه الأفعال الكلامية تؤدي إما عن طريق لفظ مفرد: كمعاني الأدوات، أو عن طريق تركيب كامل "كـ بعض معاني التأكيد، والتخصيص، والتعيين".¹⁴¹

وأكثر من هذا فقد اهتم النحاة العرب القدامى بالمتكلم والمخاطب ضمن سياق تواصلية تداولية. بمعنى أن النحاة قد ناقشوا كثيرا من القضايا النحوية وفق العنصرين التداوليين: المتكلم والسماع. أي: يعبر المتكلم عن غرض موضوعي معين، ويعمل المخاطب بما يسمعه من كلام إنجازي استلزامي فعلا، وتمثلا، واستجابة. لذا، "يحظى طرفا الخطاب (المتكلم والمخاطب) باهتمام بالغ في تحليلات العلماء العرب القدامى، وخصوصا عند عبد القاهر الجرجاني والرضي الإستراباذي، فلم يغفلا عن العلاقة القائمة بين المتكلم والمخاطب. ويتمثل اهتمامها بالمتكلم في العناية بغرضه وقصده من الكلام، أما اهتمامها بالمخاطب، فيتمثل في الاحتفاء بالإفادة، وهي الفائدة التي يجنيها السامع من الخطاب، ويتجلى ذلك أيضا مما عبر عنه الرضي: يدفع المتكلم ظن السامع به الاحتمالية والتجوز، ومنع غفلة عنه، وإزالة الشك والتوهم... وبينما يفعل عبد القاهر والرضي ذلك، نجد البحث النحوي غير الوظيفي يركز على أواخر الكلمات في الجملة ومطاردة حركاتها الإعرابية بسبب اهتمامه الشديد بنظرية العامل".¹⁴²

ومن هنا، "لا يخلو البحث النحوي في تراثنا من اهتمام بالأفعال الكلامية ضمن تطبيق معاني الخبر والإنشاء على بعض الظواهر النحوية. ومن ثم فقد ناقش نحائنا القدامى كثيرا من المعاني المتعلقة بإنجازية الأساليب العربية

¹⁴¹ - مسعود صحرأوي: نفسه، ص: 225.

¹⁴² - مسعود صحرأوي: نفسه، ص: 225-226.

المختلفة بخلفية تداولية، فتطرقوا إلى كثير من الأفعال الكلامية كفعل التأكيد، وفعل الإغراء، وفعل التحذير، وفعل النداء، وفعل الاستغاثة والندبة.

ومما يؤكد اهتمام النحاة بالبعد التداولي للظاهرة اللغوية إشارة بعضهم إلى المعاني والأغراض العميقة الكامنة وراء الألفاظ والمباني، ومن ذلك إشارة سيبويه إلى أن القسم لا يعدو أن يكون تأكيداً للكلام، وأن للاستفهام عدة وظائف تواصلية منها التنبيه... ومن ذلك إشارة كل من الخليل بن أحمد الفراهيدي ورضي الدين الإستراباذي إلى أن القسم لا يراد لذاته، وإنما يراد به إما الإلحاح في الطلب، وإما تأكيد الخبر.¹⁴³

ومن هنا، فقد تعامل النحاة العرب القدماء مع الظواهر النحوية وفق ثلاثة مستويات مختلفة: المستوى التركيبي، والمستوى الدلالي، والمستوى التداولي الوظيفي.

المطلب الثامن: تقويم المقاربة التداولية

لا أحد ينكر إيجابيات المقاربة التداولية في مقاربة الخطاب أو النص الأدبي؛ لأنها تساعدنا على فهم النص فهماً عميقاً، بربط الدلالة بالوظيفة السياقية والأداء الإنجازي. فلا يمكن تأويل النص الأدبي، مهما كان هذا النص، إلا بالاستعانة بالإحالة النصية والمقامية والسياقية، والانفتاح على المقصدية، وتمثل نظرية أفعال الكلام، وفهم حواريته الصريحة والمضمرة والبوليفونية النصية. دون أن ننسى أنه من الضروري بمكان دراسة النص الأدبي باعتباره تلفظاً سياقياً وملفوظاً حجاجياً لغوياً من الداخل، وينبغي كذلك الانتقال من المعاني الحرفية إلى المعاني المجازية تأويلاً واستكشافاً وتثرياً. ويعني هذا كله أن المقاربة التداولية متكاملة إلى حد ما، مادام يترابط فيها التركيب النحوي بالدلالة والوظيفة السياقية والمقامية.

وعلى الرغم من ذلك، فثمة مجموعة من السلبيات، فقد طبقت المقاربة التداولية على اللغة الطبيعية العادية الواضحة من حيث ملفوظاتها اللغوية، ولم تطبق

¹⁴³ - مسعود صحراوي: نفسه، ص: 226.

على اللغة الأدبية والشعرية التي تتميز بالبعد الإيحائي والتشويش الدلالي كما في الشعر، والمسرح، والرواية.

ومن جهة أخرى، فقد تعاملت المقاربة التداولية، في عمومها، نظريا وتطبيقيا مع الجملة أكثر مما تعاملت مع النص أو الخطاب. لذا، تعد الصعوبات التطبيقية المتعلقة بالخطاب أعوص من تطبيقات الجملة. وفي هذا، يقول محمد مفتاح: "إننا لم نصل بعد إلى مبادئ قارة للتحكم في استعمال اللغة بكيفية ناجعة وناجحة لضبط حساب تأويل مانتلقاه، كما توصل اللسانيون إلى وضع قواعد تركيبية وصوتية. وإذا كان هذا العجز على مستوى استعمال اللغة بكيفية عادية، فإنه أدهى وأمر على مستوى استعمالها بكيفية أدبية. وهذا ما أدركه كثير من اللسانيين وفلاسفة اللغة، فلذلك نادى بعضهم بإخراج اللغة الأدبية من الدراسات اللسانية مؤقتا.

إن أهم من دعا إلى هذا: "أوستن"، ولانستغرب موقفه؛ لأن منطلقه كان هو تحليل اللغة العادية، وليس اللغة الشعرية التي هي - في نظره - غير جدية وغير عادية ومشوشة، لا ترجع إلى الأفعال بالكلام، يقول: "إن المقال الإنجازي سيكون فارغا أو خاليا إذا نطق به ممثل على الخشبة أو أدمج في نص شعري..."¹⁴⁴

كما ميز سورل بين اللغة العادية الواضحة واللغة الأدبية المشوشة، أو بين اللغة التي تحيل على الواقع، واللغة التي تتمرد عنه، مفضلا اللغة العادية الخاضعة لمعايير معنوية وتداولية معينة. وقد اعتبر استعمال مقاييس اللغة العادية في المجال الأدبي ليست بحقيقة، وإنما هي ادعاءات أو إيهامات بالفعل الكلامي... "فالمتكلم ليس ملزما بصدق إخباره الأدبي مثلما هو ملزم بصدق إخباره العادي، وقول سورل هذا هو الخلاصة التي انتهى إليها كثير من الباحثين في الخطاب الأدبي."¹⁴⁵

¹⁴⁴ - محمد مفتاح: نفسه، ص: 144.

¹⁴⁵ - محمد مفتاح: نفسه، ص: 145.

بيد أن محمد مفتاح له تصور مخالف في ذلك، ونحن نؤيده في ذلك كل التأيد، فهو يرى أنه من الممكن دراسة الخطاب الأدبي في ضوء نظرية الأفعال الكلامية، وفي ضوء التصورات التداولية؛ لأن النص الأدبي فيه قسط من الواقع وقسط من الخيال. وفي هذا السياق، يقول محمد مفتاح في كتابه (الخطاب): "إن هذا الإجماع لا يمنع من مناقشة بعض الأفكار الواردة في برهنتهم، مثل : المقابلة بين الادعاء/ الواقع، وبين العادي/ اللاعادي وغيرهما، فهي ليست مقابلات متناقضة، إذ قد يكون بين المتقابلين طرف محايد. كما أن برهنة سورل لم تشمل جميع الأنواع الخمسة (الفعل الإخباري، والفعل الأمر، والفعل الالتزام، والفعل التصريحي، والفعل البوحي الشعوري)، وإنما ضرب مثلاً للإخبار والالتزام، وقد نسلم له بما قاله في المثليين من ادعاء، ولكننا لانسلم له بأن النوع التعبيري فيه ادعاء، بل يمكن القول إنه واقعي في كل استعمالات اللغة وبخاصة في الشعر، وهذا ما أثبتته دراسات كثيرة جعلت الوظيفة الاتفالية أو التعبيرية من بين الوظائف الأساسية للغة، فالوظيفة الانفعالية أو التعبيرية هي جوهر الشعر الذي هو عبارة عن توجع وآهات إلى حد كبير. فهناك خلط، إذاً، يضاف إليه غموض آخر نجده في التفرقة بين الخيالي/ اللاخيالي، ودلالة الكلمات في كل منهما، فهي ليست لها الدلالة العادية في الخطاب الخيالي، إن هذه الثنائية مجحفة أيضاً، فالخطاب الخيالي يكون محتويًا بلاشك على قسط واقعي، وعلى هذا، فإن هناك في النص الأدبي ما يحكم بقواعد الخطاب الواقعي، ومنه ما يمتد عليها، وقد يتجلى خرق العادة اللغوية في أنواع أدبية خاصة، مثل: الأدب الفانتازي، وأدب الغرائب والعجائب، وفي بعض النصوص الشعرية الحديثة.

ومهما يكن، فإن هذا الجيل من فلاسفة اللغة أبعد البحث في الأدب مؤقتاً، ولكن سورل بدأ يفتح عليه أخيراً بوضع مفاهيم إجرائية مفيدة لدراسة النص الأدبي، وبخاصة في كتابه: "المعنى والتعبير" و"المقصدية"، كما نجد لدى كرايس مفهوم التضمن الذي يتيح الفرصة للبحث عن التشاكل الجامع، وترابط الكلام بعضه ببعض، على الرغم مما يعترضه من انقطاعات وثغرات.¹⁴⁶

علاوة على ذلك، لاتعنى المقاربة التداولية كثيرا بالجمالية الفنية ، ولاتركز اهتمامها على أدبية النص في حد ذاتها بغية تعميق الفهم في الآليات التي تتحكم في بناء النص الأدبي، كما لاتعنى هذه المقاربة بالعواطف والانطباعات والذوق الأدبي .

وعلى الرغم من هذه الانتقادات ، تبقى التداولية أو الذرائعية - كما يسميها البعض- مقاربة شبه متكاملة ، فلقد استطاعت أن تسد ثغرة اللسانيات الموجودة كاللسانيات الوصفية واللسانيات التفسيرية بإضافة البعد التداولي إليها. وقد عملت التوليدية التحويلية مع نوام شومسكي بإضافة القدرة التداولية إلى القدرة الكفائية على مستوى التصور النظري والتطبيقي. ولهذا، فقد " ظهرت دراسات مختلفة منها (على سبيل المثال لا الحصر) محاولات ستيفن ليفنسون في كتابه: "التداوليات". فهو يرى أن نقص التركيز على الجانب التبادلي يفضي إلى عجز اللسانيات عن تبرير الجانب الاتصالي للغة، خاصة أن نظرية علم المعاني لا تعيننا كثيرا على فهم اللغة. من هذا المنطلق، أصبحت الذرائعية أو التبادلية جزءا ثالثا في الدراسة اللسانية. أما في الدراسات الأدبية ، فقد ركزت الذرائعية على سمة الأدب الاتصالية انطلاقا من أن الاتصال عموما لا يكتمل دون أخذ الأدب وسياقه في الاعتبار، كما أن دراسة الأدب لاتكتمل دون الأخذ في الاعتبار توظيف الأدب لمصادر الاتصال المختلفة. إن أبعاد مثل هذا الطرح لاشك مثرية، فالأدب لم يعد نصا مغلقا أو بنية شكلية معزولة عن سياقها، بل إن هذا الاتجاه أعاد إلى الدرس الأدبي الصلة القديمة بين الخطابة والشعرية. ولهذا، فإن الدراسة الذرائعية/ التبادلية للأدب تسعى إلى اكتشاف التقنيات العملية في النص (الإيحاء، والافتراض المسبق، والإقناع)، وربطها بالقوى الخارجية في عالم الكاتب والقارئ، مثل : علاقات القوى والتقاليد الثقافية، وأنظمة النشر والتوزيع والرقابة، وهلم جرا. ويبقى التركيز في كل هذا على صلات الاتصال والتفاعل الخاصة والدقيقة الفعلية.¹⁴⁷

¹⁴⁷ - ميجان الرويلي وسعد البازعي: نفسه، ص: 103.

وهكذا، فلا يمكن للنقد الأدبي أن يحقق نجاعته الكفائية والتقنية إلا بتمثل المقاربة التداولية التي تجمع بين ثلاثة عناصر متكاملة هي: النحو، والدلالة، والوظيفة.

وخلاصة القول، نستنتج أن المقاربة التداولية هي التي تدرس النص في سياقه التخاطبي، والتلفظي، والإشاري، والتفاعلي، والتحاورى؛ بالتركيز على أفعال الكلام، وعمليات التخاطب والتفاعل، والتشديد أيضا على الإحالة، والسياق، والمقصدية، والوظيفة، والتأويل، والاستلزام الحوارى...

ومن هنا، تدرس التداوليات المباحث والقضايا التالية: الأفعال الكلامية، والخبر والإنشاء، والسياق التداولي، والمعينات الإشارية، ووظائف اللغة اللسانية، والمقاصد القريبة والبعيدة، والبعد التخاطبي، والبعد الحجاجي، والبعد التواصلى التفاعلي، والحوارية البوليفونية، إلخ...

الفصل الثاني:

قصيدة (نشيد الجبار) لأبي القاسم الشابي
في ضوء المعينات الإشارية

تتضمن قصيدة (نشيد الجبار أو هكذا غنى بروميثيوس)¹⁴⁸ لأبي القاسم الشابي ستة وثلاثين (36) بيتا شعريا منظوما على وزن الكامل (متفاع- متفاع- متفاع- متفاع) وقد استثمر الشاعر كل تنويعات تفعيلات "متفاع- متفاع" بزحافات و عللها، نقصانا وزيادة. في حين، تتميز القافية بكونها مطلقة موصولة مردوفة، رويها الهمزة. علاوة على ذلك، يتميز الكامل بكثرة حركاته وسكناته (42 حركة)، ويدل على الكمال، والاطراد، واتساع النفس الإيقاعي والتغيمي للتعبير عما يخالج الذات من مواضيع جادة وجدية ومهمة، كالمديح النبوي، ورصد الثورات الاجتماعية والسياسية والوطنية والقومية والتحررية، ووصف المعارك من جهة، والتقاط الطبيعة من جهة أخرى... علاوة على ذلك، يرى أبو حازم القرطاجني أن الكامل بحر الاطراد والجزالة. وفي هذا، يقول: "فالعروض الطويل نجد فيه أبدا بهاء وقوة، ونجد للبسيط سبابة وطلاوة، ونجد للكامل جزالة وحسن اطراد، وللخفيف جزالة ورشاقة، وللمتقارب سبابة وسهولة، وللمديد رقة ولينا مع رشاقة، وللرمل لينا وسهولة".¹⁴⁹

ويلاحظ أن هذه القصيدة الهمزية تقليدية البناء والقالب. بمعنى أنها تتسم بتتابع الأبيات، والتراوح بين نظام الشطرين (الصدر والعجز)، ووحدة الروي والقافية. ومن ثم، فهي تتوفر على التصريح المقفى في البيت الأول¹⁵⁰:

¹⁴⁸ - أبو القاسم الشابي: ديوان أبي القاسم الشابي ورسائله، تقديم وشرح: راجي الأسمر، مؤسسة المعارف للطبع والنشر، بيروت، لبنان، طبعة 2005م، صص: 15-18.

¹⁴⁹ - أبو حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تونس، الطبعة الأولى سنة 1966م، ص: 259.

¹⁵⁰ - أبو القاسم الشابي: ديوان أبي القاسم الشابي ورسائله، ص: 15.

وعلى العموم، تحوي قصيدة (نشيد الجبار) لأبي القسم الشابي على مجموعة من القرائن والمؤشرات التواصلية والسياقية والتداولية التي تدل على اندماج الشاعر ذاتيا في خضم الواقع الموضوعي، وحضوره في الزمان والمكان بشعار: "نحن- الآن- هنا". وهذا، يخالف ما ذهب إليه أغلب النقاد العرب المحدثين، حينما أثبتوا أن القصيدة الرومانسية، كما هي عند شعراء أبولو، مغرقة في الذاتية والشكوى، وبعيدة عن الواقع الثوري والنضالي. في حين، إن القصيدة الرومانسية أو الذاتية – من خلال المنظور التداولي والتلفظي- كانت أكثر اندماجا في الواقع، وأكثر ارتباطا بسياقها المرجعي والتواصلية والخارجي. والدليل على ذلك تلك القرائن التداولية الداخلية، وتلك المؤشرات التلفظية الدالة على انغراس الشاعر في تربته الواقعية. بالإضافة إلى منظوره الشخصي الداخلي الذي يعبر فنيا وجماليا على حضور الشاعر تذويتا وتعبيرا وانفعالا، وتأكيد مدى مشاركته للآخرين في نقل الواقع محاكاة وتصويرا، وتسجيله تخيلا ورمزا وإيحاء، واستكشافه ذاتيا أو موضوعيا. ومن هذه الآراء النقدية التي تبعد عن الشعر الذاتي اندماجه وارتباطه بالواقع الموضوعي ما قاله الناقد المغربي أحمد المجاطي في كتابه (ظاهرة الشعر الحديث): "غير أن القضاء لم يستجب لهم [شعراء أبولو] جميعا، فإني ألامهم بتجربة الموت، فقد مات الشابي والشرنوبلي والهمشري، وهم صغار، وبقي غيرهم من شعراء هذه الجماعة، يعزفون على الأوتار نفسها، حتى بليت، ورثت، ولم تعد تضيف جديدا، ذلك أنهم قد رفضوا أن يفتحوا أنفسهم للحياة المتجددة، وآثروا على ذلك حبس مواهبهم، في دائرة التجربة الذاتية الضيقة، ثم خلف من بعدهم خلف اقتفى آثارهم، ونسج على منوالهم، فتشابهت التجارب، وكثر الاجترار، وقلت فرص الجودة والطرافة...

والحق أن نزعة الانطواء والهروب من مواجهة الحياة، كانت صفة بارزة في شعرهم.¹⁵¹

إذاً، هل كان أبو القاسم الشابي – فعلاً – شاعراً مريضاً ومنطوياً على نفسه، وبعيداً عن الحياة والواقع على حد سواء؟ أم كان الشابي شاعراً واقعياً، ليس في قصائده الوطنية والاجتماعية فحسب، بل حتى في قصائده الذاتية والوجدانية والرومانسية؟ هذا ما سوف نحاول رصده في ما يلي:

المطلب الأول: منهجية الدراسة

تهدف المقاربة القرآنية أو التلفظية (L'approche déictique) – ذات البعد اللساني- إلى دراسة الخطاب الشعري في ضوء المعينات الإشارية، أو قراءتها من خلال القرائن اللغوية، أو مقاربتها عبر المؤشرات التلفظية التي تحدد سياق الملفوظ اللغوي واللساني. ومن أهم هذه المعينات: ضمائر الشخص، وأسماء الإشارة، وظروف المكان والزمان، وصيغ القرابة، والتعابير الانفعالية الذاتية. ومن ثم، تتبنى المقاربة القرآنية أو المقاربة "التلفظية" على دراسة سياق التلفظ، وأطراف التواصل اللغوي، وروابط الحجاج، والبوليفونية اللسانية، وأفعال الكلام، والذاتية والموضوعية، والمقصدية التلفظية... بالتركيز على ثلاثة مبادئ منهجية هي: البنية، والدلالة، والوظيفة.

ومن المعلوم أيضاً أن هذه المقاربة القرآنية أو الإشارية أو التلفظية تمتح آلياتها من اللسانيات الخارجية ذات البعد المرجعي، مع الانفتاح، بشكل من الأشكال، على التداوليات والسيميوطيقا النصية والخطابية. ويعني هذا أن سيميوطيقا التلفظ تتكئ على اللسانيات الاجتماعية ذات البعد الخارجي، وتعتمد أيضاً على الأسلوبية والتداوليات بمختلف تياراتها، ولاسيما الحجاجية منها. كما تزوج المقاربة القرآنية بين قراءة داخلية تلفظية، وقراءة خارجية سياقية

¹⁵¹ - أحمد المجاطي: ظاهرة الشعر الحديث، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية، 2007م، ص: 33.

وإحالية. وتعنى كذلك بدراسة الكلام في بعده السياقي، والتداولي، والمرجعي، والمقامي.

وبناء على ما سبق، يتضح لنا أن لسانيات التلفظ هي تلك النظرية التي تدرس العلاقة التلفظية القائمة بين المتكلم أو المخاطب، أو بين المتلفظ والمتلفظ له، ضمن سياقات إحالية ومرجعية مختلفة، سواء أكان ذلك الملفوظ أو المقول شفويا أم كتابيا. ويعني هذا أن عملية التلفظ (القول) هي التي تسهم في بلورة الملفوظ (المقول). ومن ثم، فإن الملفوظ ذو طبيعة مادية، سواء أكانت فيزيائية أم اجتماعية؛ حيث يمكن التقاطه عبر الحواس الخمس، وخاصة عبر السمع (الملفوظ الشفوي)، أو عبر البصر (الملفوظ الكتابي والرقمي).

أما هدفنا من هذه الدراسة، فهو أن نثبت مدى واقعية أبي القاسم الشابي في شعره الواقعي والذاتي معا، ومدى اندماجه حضوريا وسياقيا في الزمان والمكان، بالصيغة السيميائية التالية: "نحن - الآن - هنا". لذلك، أثرنا أن نستكشف قصيدة (نشيد الجبار) لأبي القاسم الشابي تشريحا، وتفكيكا، وتركيبا من جهة، و نقاربها فهما وتأويلا من جهة أخرى.

المطلب الثاني: التشريح التطبيقي

تتضمن قصيدة (نشيد الجبار) لأبي القاسم الشابي أنواعا من المعينات والقرائن الإشارية، وهي قرائن تتعلق بالملفوظ التواصل، والملفوظ السياقي، والملفوظ الذاتي والموضوعي، والملفوظ الحجاجي، والملفوظ التداولي.... وتبين هذه القرائن، بطريقة من الطرائق، مدى اندماج أبي القاسم الشابي في واقعه، ومدى انخراطه في السياق التداولي إن زمانا، وإن مكانا. ولا يمكن أن يتشخص ذلك بجلاء إلا باستكشاف البنيات التلفظية، واستقراء الروابط الحجاجية والسياقية. ونذكر من أهم هذه القرائن التلفظية والسيميائية ما يلي:

الفرع الأول: المعينات التواصلية الذاتية

تتقسم المعينات التواصلية الذاتية إلى معينات الذات أو المرسل، ومعينات المخاطب أو المرسل إليه. ويعني هذا أن ثمة قرائن إشارية دالة على حضور المتكلم وحضور المخاطب على حد سواء.

أولاً، قرائن الذات المتكلمة:

ترتبط هذه الهمزية بالذات الشاعرة المرسلّة والمتكلّمة حضوراً واندماجاً وتجذيراً في الزمان والمكان. ويتمثّل حضور الشاعر في هذه القصيدة، عبر مجموعة من القرائن التعبيرية والوسائط اللغوية التلفظية التي يمكن حصرها في القرائن الإشارية التالية:

000000 00000000 00000000 00 000000 0000000 0000000 00000000 00000000 ①
 0000 0000000000 00000000 0000000 0000000 000000000 00000000 0000 000
 000000 000000000000000000 0000000 0000000 0000 00000000000000 00000000
 0000...0000000000 00000000 0000000 00000 00000000

000000 00000000 0000000 0000 000000 000000 0000000000 0000000 ②
 0000 00000000 000000 00000 000 0000000 00000 000000 00000 000000 000
 00000000 0000000 000 000 000 000000000 0000000 00 000 0000 000000
 000000 000(000000 00000000 000000 0000000 000000 000000000 0000
 00...0000000 000 000 00000000 000 0000000 000 0000000

[illegible]

وإذا كانت القصيدة تتضمن سبعة وستين (67) فعلا، فإنها تتوزع إلى خمسة وثلاثين (35) فعلا مضارعا، وأربع وعشرين (24) فعلا ماضيا، وثمانية (8) أفعال أمر على الشكل التالي:

مجموع الأفعال	الأفعال المضارعة	الأفعال الماضية	أفعال الأمر
67 فعلا	35 فعلا	24 فعلا	8 أفعال

ويعني هذا أن الشاعر يكثر من الأفعال المضارعة. وبعدها، تأتي الأفعال الماضية، فأفعال الأمر. وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على مدى تجذر الشاعر سياقيا في الزمان والمكان، ويبرهن لسانيا على حضوره في الواقع قوة، وإرادة، ونضالا، وتغييرا، وليس ضعفا أو مرضا أو هروبا.

④ صيغ التملك: تعمل صيغ التملك على تثبيت حضور الشاعر والمبدع في السياق الفضائي والتواصلي، والاستدلال على ذاتيته الإبداعية، وإثبات إنيته وكيونته الوجودية، باعتباره مرسلا ومتكلما وذاتا حاضرة على مستوى التلفظ والتواصل، كما في الأمثلة التالية: (قلبي- بنائي- شتائي- أعضائي- غنائي- أشلائي...)

⑤ صيغ التقويم والحكم: تحضر الذات المتكلمة عبر صيغ التقويم والحكم، سواء أكان ذلك الحكم محايدا أم إيجابيا أم سلبيا، ومن الأمثلة التي يمكن استحضارها في هذا النطاق الأحكام المحايدة: (الشمس المضيئة- الصخرة الصماء- الشعلة الحمراء- القبة الزرقاء- الوحي المقدس...)، والأحكام السلبية (الظل الكئيب- الهوة السوداء- ظلمة الآلام والأدواء...)، والأحكام الإيجابية (أنا الناي- أنا الخضم الرحب- أنا السعيد – الجمال السرمدى- وجهي مشرق- الشفق الجميل...).

◆ **الصيغ الانفعالية والتعبيرية:** تعبر صيغ الانفعال والتعجب والتأثر على حضور المتكلم المرسل تجذيرا واندماجا داخل عملية التلفظ الإبداعي. ومن الأدلة على ذلك الصيغ التعبيرية التالية: (فعلام أخشى السير في الظلماء!...).

⑥ □□□□□□□□ □□ □□ □□□□□□

00000000 00 00000000 00 00000000 0000 0000 00000000 00000000 000000 0000
 0000 0000 0000000000 00000000 00000 000000 00 0000000000000 00000 00000 00000000
 0000000000 0000 00000 0000000000 00000 0000 00 0000 00000000 00 0000000000 000000
 00000 0000000 00000 0000 0000 000000000 00000 0000 00 00000 00000 00 0000 00 000000
 0000000 000000000 00 00000000 0000000 0000000000000 000000000 00000000 000000 0000

XXXXXXXX XXXXXXXXXXXX XX XXXXXXXX XXXXXXXXXXXX XXXXXXX

0000 00000 0000 00000 0000 000000 00000000 0000 0000000 0000 000000
 0000000 0000 0000 00000 00000 00 0000 000000 000000 00 000 00000 00000
 000000 00000000 00000 000000 00000000 00000 000000 000 0000000
 0000000 00 000000 000 0000000 00 0000 000000 00000 00000000000
 00 000000 00000 0000 0000 0000000000 0000000 00000000 00000000
 000000000 00000000 00000000

[illegible]

0000000 000000 00000000 0000000 0000 000 000000000 0000②
 00 000000 00000000 0000000 00 0000 0000000 00000000 0000 000 000000000000
 000000 0000000 000000 00000000 000 000000 0000 000000000 0000000
 00000000 000000 00000000 0000000 00 00000000000000 0000000000(00000000
 000000000000(0000 00000000 0000000 0000000 000000 000000 00 000000000000(0
 0000000 000 0000000 000...000000000 000000000 00000000 0000000 00000
 000000 00 0000000 000000 000 000000000 000000 00 0000000000 000000 00 00000000
 000 000000 000000 00 000 000000 00000000 000 00 0000000000 0000 000 0000000000

"فارموا إلى النَّارِ الحشائشَ..، والعبوا
 "وإذا تمرَّدتِ العواصفُ، وانتشى
 "ورأيتُموني طائرًا، مترنِّمًا
 "فارموا على ظِلِّي الحجارةَ، واختفوا
 وهناك، في أَمْنِ البُيُوتِ، تَطَارَحُوا
 "وترنِّموا - ما شِئْتُمْ - بِشِئَانِي
 أما أنا فأجيبكم من فوقكم
 "مَنْ جَاشَ بِالوَحْيِ المقدَّسِ قلبُه
 يا مَعْشَرَ الأَطْفَالِ تحتَ سَمَائِي"
 بالهولِ قَلْبُ القَبَةِ الزَّرْقَاءِ"
 فوقَ الزُّوابعِ، في الفُضَاءِ النَّائِي
 خَوْفَ الرِّيحِ الهُوجِ والأنواعِ..
 غَتَّ الحديثُ، وميَّتَ الآراءُ"
 وتجاهرُوا - ما شِئْتُمْ - بِعِدَائِي"
 والشمسُ والشفقُ الجميلُ إزائي :
 لم يحتفلَ بحجارةِ الفلِئتاءِ »

الفرع الثاني: المعينات السياقية

تتقسم المعينات السياقية أو الإحالية أو المرجعية إلى القرائن الزمانية والقرائن المكانية. بمعنى أن هذه القرائن الإشارية هي التي تشكل النسق التواصلية لعملية التلطف القائمة بين الذات المتكلمة والذات المخاطبة. وتدل هذه القرائن الزمانية والمكانية على حضور المتكلم والمخاطب جنباً إلى جنب استحضارا أو إضمارا. ويمكن تصنيف القرائن السياقية إلى نوعين من القرائن: القرائن الإشارية الزمانية، والقرائن الإشارية المكانية.

أولاً، القرائن الزمانية:

تعمل القرائن الإشارية الزمانية على تأطير عملية التواصل داخل نطاقها الزمني. كما تعبر عن اندماج المتكلم والمخاطب معا داخل الزمن النصي والتلفظي والتواصلية. ويكون التأشير الزمني في هذه القصيدة بواسطة الصيغ الزمانية المجردة (الفجر - الشمس المضيئة - الظلمة - الدجى - الشفق الجميل - النور - الظلماء -...)، والأفعال الدالة على التزمين (انقضى عمري - خمدت حياتي...). وتدل هذه الصيغ الزمانية على جدلية الظلمة والنور.

ثانياً، القرائن المكانية:

تحدد القرائن الإشارية المكانية الإطار المكاني الذي تجري فيه عملية التواصل والتلفظ، وتواجد كل من المتكلم والمخاطب ، سواء أكانت تلك المعينات أسماء

للإشارة (هناك)، أم ظروفًا للمكان (إزائي- فوق- بين- تحت - ...)، أم أسماء للمكان (الفضاء- البيوت-...)، أم صيغا مكانية مجردة (القمة السماء- قرار الهوة- دنيا المشاعر- الكون- الخضم الرحب- السماء...).

ونستنتج ، مما سبق ذكره، أن الذات المتكلمة والذات المخاطبة حاضرتان داخل النص الشعري في الزمان ظلمة ونورا، وفي المكان صعودا ونزولا. ويعني هذا أن الشاعر ومخاطبه حاضران في مكان تتجاذبه مجموعة من الثنائيات البنيوية: كجدلية النور والظلمة، وجدلية المادة والروح، وجدلية الأعلى والأسفل، وجدلية القوة والضعف، وجدلية الحب والكراهية، وجدلية العلم والجهل، وجدلية البناء والهدم، وجدلية الحرية والعبودية، وجدلية الفرح والحزن، وجدلية الحياة والموت، وجدلية الحاضر والمستقبل، وجدلية الذات والآخر، وجدلية التحدي والاستسلام، وجدلية الأمل واليأس، وجدلية السلام والحرب، وجدلية الذات والطبيعة-... وتتجمع هذه الثنائيات الجدلية في ثنائية سيميائية مولدة هي ثنائية النور والظلمة. وترتبط هذه الثنائية بدورها بثنائية الحياة والموت. ويمكن حصر معاجم ثنائية النور والظلمة في الصور التالية:

صورة النور	صورة الظلمة
الشمس المضيئة- اللمع المؤجج- يحدق بالفجر- متوهج- لهيب الكون- الشعلة الحمراء- فجر الجمال- الأضواء- يشبون اللمع- وجهي مشرق- النار- الشفق الجميل- الشمس...	السحب- الأمطار- الأنواء- الظل الكئيب- الهوة السوداء- الدجى- ظلمة الآلام والأدواء- الظلماء- خبا لهيب الكون...

ويتبين لنا – من خلال هذا الجدول- أن مفردات النور أكثر من مفردات الظلمة، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على انتصار النور والحياة على الظلمة والموت، ويدل أيضا على مدى تطلع الشاعر إلى الفجر والحرية

والحياة ، وتلذذه بالأمل المعسول المقترن بالقوة، والتحدي، والنصر على الأعداء والأدواء على حد سواء.

الفرع الثالث: المقاطع الذاتية والموضوعية

نعني بالمقاطع الذاتية داخل القصيدة الشعرية تلك المقاطع التي تحضر فيها الذات المتكلمة أو الذات المخاطبة ، عبر الصيغ اللغوية والقرائن والمؤشرات والمعينات الدالة على الحضور والاندماج والتجذير في الزمان والمكان. في حين، إن المقاطع الموضوعية هي التي يغيب فيها ضمير المتكلم، أو تغيب فيها الذات المتكلمة والذات المخاطبة؛ حيث يتحول ضمير التكلم في المقطع الشعري إلى ضمير الغياب، أو ما يسمى بالضمير اللاشخصي. لأن ضمير المتكلم يدل على حضور الشخص في الزمان والمكان ضمن عملية التلفظ التواصلية . بينما يدل ضمير الغياب على غياب الشخص في الزمان والمكان، ويعبر أيضا عن اللاندماج داخل القصيدة الشعرية.

ويلاحظ أن المقاطع الذاتية أكثر بكثير من المقاطع الموضوعية، حيث نجد أن هناك ثلاثة وعشرين (23) بيتا شعريا ذاتيا مقابل أربعة عشرة (14) بيتا شعريا غيريا أو موضوعيا. ويؤشر هذا كله على ضمور ضمير الغياب اللاشخصي أمام اكتساح ضمائر التكلم لمعظم أبيات القصيدة الشعرية التي تعبر عن الاندماج والتجذير والتواجد داخل عملية التلفظ التواصلية.

الفرع الرابع: الروابط اللغوية الحجاجية

تذهب النظرية الحجاجية اللغوية إلى أن النص أو الخطاب عبارة عن حجج ونتائج وروابط لغوية حجاجية. وخير من يمثل هذه المقاربة الحجاجية أوزوالد دوكرو (Ducrot) الذي أدخل البعد التداولي ضمن الوصف اللساني، باعتباره أحد مكوناته الرئيسية إلى جانب التركيب والدلالة على غرار شارل موريس. ويعني هذا أن البعد التداولي للملفوظ يوجد في اللغة نفسها، وليس مرتبطا بسياق تلفظي ما. ومن ثم، فالعلاقات الموجودة بين الملفوظات هي علاقة حجاجية، وليست منطقية استنباطية. بمعنى أن القواعد الحجاجية هي التي تتحكم في ترابط ملفوظات النص، وتسلسلها في علاقاتها بمعانيها، وليست هي

القواعد المنطقية والاستنباطية. أي: إن الروابط الحجاجية هي التي تتحكم في اتساق النص وانسجامه ، كالضمان ، وحروف العطف، والأسماء الموصولة، وأسماء الإشارة، وروابط الإثبات والنفي، والاستنتاج، والاستدراك.... ومن ثم، فلقد اهتم دوكر وكثيرا بالروابط التعبيرية التي تخلق اتساق النص وانسجامه اتصالا وانفصالا. واهتم كذلك بالتمفصلات اللغوية التي تسهم في خلق النص الحجاجي برهنة، واستدلالات، وترابطا، وهيكلية.

والغرض من هذا الحجاج هو الإقناع، والتأثير، والتداول، والتواصل، والتخاطب. ومن ثم، فالحجاج فعالية تداولية جدلية ديناميكية فعالة. وهناك نوعان من الحجاج: حجاج عادي عند البلاغيين الجدد، يستعمل آليات وتقنيات بلاغية ومنطقية. أي: مجمل الإستراتيجيات التي يستعملها المتكلم من أجل إقناع مخاطبه. وفي هذا المجال، ارتبطت البلاغة الجديدة بالحجاج ارتباطا وثيقا ، فاستعملت تقنيات البلاغة في عملية الإقناع والإقناع، وقد اهتم بها كل من بيرلمان (Perelman) و أولبريشت تيتيكا (Tyteka) في كتابهما (مصنف في الحجاج: البلاغة الجديدة) (1958م). وقد ركز بيرلمان كثيرا على مبدئين رئيسيين هما: القصد والمقام. ويمكن الاستفادة من هذا التصور الحجاجي التقليدي؛ حيث يساعدنا على " اكتساب خبرة منهجية دقيقة في تحليل نصوص ذات طبيعة حجاجية قوية ،كالنصوص القضائية والسياسية والفلسفية ، بناء على تصور تفاعلي بين الذات المتكلمة والمخاطبين. وعلى الرغم من ميزات هذا التصور، فإنه يقصر الحجاج على بعض التقنيات والآليات البلاغية والمنطقية، وهو ما يدفعه إلى تقسيم الخطابات إلى خطابات حجاجية ذات طبيعة إقناعية، كالمناظرات والمجادلات الدينية والفلسفية والسياسية والقانونية، وأخرى غير حجاجية . بينما يتبنى التصور التقني للحجاج تقسيما آخر تصير بمقتضاه كل الخطابات المختلفة التي تستعمل لسانا طبيعيا خطابات حجاجية بدرجات مختلفة".¹⁵²

¹⁵² - رضوان الرقبي: (الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله)، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد 2، المجلد 40، أكتوبر- ديسمبر 2011م، ص: 85.

وفي المقابل، هناك حجاج لغوي يعتمد على الروابط اللغوية في عملية الإقناع والمحااجة، ويمثل هذا الاتجاه كل من أوزوالد دوكرو في كتابه (السلام الحجاجية) (1989م)، وأنسكومبر (Anscobre). ويسمى هذا أيضا بالحجاج داخل اللغة، وهو امتداد للمقاربة التلفظية عند إميل بنيفنست، وأوستين، وسورل، وكرايس. ويتم التركيز عند دوكرو على منطق الكلام، باستكشاف القواعد الداخلية للخطاب التي تتحكم في ترابط النص وتسلسله واتساقه وانسجامه. ومن ثم، فليس الحجاج خارجا عن اللغة، أو يضاف إليها، بل هو موجود في داخل اللغة، وعبرها، وفي بنيتها الضمنية. ويمكن للجملة، باعتبارها مورفيمات ومونيمات وتعابير وصيغا، بالإضافة إلى محتواها القضوي الإخباري، أن توجه للمتلقى تأثيرات إقناعية حجاجية سلبية أو إيجابية.

ومن هنا، يمكن مدارس النص الأدبي، سواء أكان سردا أم مسرحية أم نصا شعريا، في ضوء المقاربة الحجاجية، باستكشاف الروابط الحجاجية اللغوية التي تتحكم في بناء النص وترابطه، مع تبيان البعد الحجاجي والإقناعي في النص، بالتشديد على السلم الحجاجي الذي يعنى بدراسة مسار الحجاج انطلاقا من قول الحجة إلى نتیجتها، مع تبيان طريقة التلازم و التعاقد، وسلم التفاضل بين الحجج من حيث القوة والضعف، و الكم و کیف ... إلخ

وعليه، تقوم الروابط الحجاجية والتلفظية على تمثين روابط التواصل، وتقوية التلطف بين المتكلم والمخاطب. وهكذا، تحضر في هذه القصيدة مجموعة من الروابط الحجاجية وصلا وفصلا لتحقيق الاتساق والانسجام على مستوى بناء الملفوظ. ويمكن حصرها في:

◆ روابط التشبيه: الكاف- مثل...

◆ روابط الاستدراك: رغم...

◆ روابط التزمين: سأعيش...

- ◆ روابط النفي: لا أرمق- لا أرى- ليس تزيد- لا تهد- لم يحتفل...
 - ◆ روابط العطف: الواو- الفاء...
 - ◆ روابط الإشارة: تلك- ذلك- هناك...
 - ◆ روابط الصلة: الذي- ما- الذين...
 - ◆ روابط التأكيد: إنه-إني- قد- إن...
 - ◆ روابط الاستفهام: علام؟...
 - ◆ روابط القصر والحصر: ليس...إلا...
 - ◆ روابط الشرط: إذا خمدت حياتي...- إذا تمردت العواصف... من جاش...
 - ◆ روابط الفصل: أما....
 - ◆ روابط التعليل: لأذوب...ليأكلوا...
 - ◆ روابط التمني والرجاء والتوقع: لو...
 - ◆ روابط التعميم أو روابط الكم: كل...
 - ◆ الروابط الشخصية أو الضمائر: أنا- ياء المتكلم- همزة المضارع...
 - ◆ روابط النداء: يا معشر الأطفال...
 - ◆ التكرار: ما شئتم(كررت مرتين)...
- وعلى العموم، فقد بدأ الشاعر سلمه الحجاجي بالإثبات المستقبلي، ثم أعقبه بالاستدراك والتشبيه:

كَالنَّسْرِ فَوْقَ الْقِمَّةِ الشَّمَاءِ

سَاعِيشُ رَغَمِ الدَّاءِ وَالْأَعْدَاءِ

وبعد ذلك، ينتقل الشاعر إلى الإثبات الحجاجي، باستخدام آليات الوصل (الضمائر - والأسماء الموصولة - وحروف العطف - وأسماء الإشارة - والشرط - والتمني - والتشبيه - والتعليل - ...)، وآليات الفصل (النفي - الاستثناء - الاستفهام - الفصل بأما...)، واستثمار آليات التأكيد من بالتشديد على ضمائر الحضور، واستخدام أدوات التأكيد، وتوظيف روابط النداء... وإذا كانت القصيدة تبتدئ بالإثبات، فإنها تنتهي بحجاج الشرط الافتراضي والاحتمالي القائم على أداة الشرط والنفي.

وبناء على ما سبق، يتضح لنا أن الملفوظ اللساني - غالباً - ما يتم تعضيده بآليات الوصل والفصل بغية خلق خطاب حجاجي، يربط المتكلم بالمخاطب وصلاً وفصلاً، وإثباتاً ونفياً. وهذا له علاقة وطيدة بمقاصديات المرسل وغاياته المباشرة والإيحائية.

الفرع الخامس: الأفعال الكلامية

ليس النص الأدبي مجرد خطاب لتبادل الأخبار والأقوال والأحاديث، بل يهدف عبر مجموعة من الأقوال والأفعال الإنجازية إلى تغيير وضع المتلقي، وتغيير نظام معتقداته، أو تغيير موقفه السلوكي من خلال ثنائية فعل ولا تفعل¹⁵³. ويعني هذا أن الخطاب أو النص الأدبي، في مفهوم التداوليات التحليلية التي ظهرت في سنوات الخمسين من القرن العشرين مع أوستين، كما في كتابه (نظرية أفعال الكلام) (1962م)¹⁵⁴، وسورل في كتابه (أفعال اللغة) (1969م)¹⁵⁵، عبارة عن أفعال كلامية تتجاوز الأقوال والملفوظات إلى الفعل الإنجازي، والتأثير الذي يتركه ذلك الإنجاز. ومن هنا، فنظرية الأفعال الكلامية تتبني على ثلاثة عناصر رئيسية هي:

¹⁵³ - Catherine kerbrat-Orrecchioni: Ennonciation de la subjectivité dans le langage, Paris, Armond Colin, 1980, p:181.

¹⁵⁴ - J.L.Austin: Quand dire, c'est faire, Editions du seuil, Paris, 1970.

¹⁵⁵ - John R.Searle: les actes de langage, Collection, savoir Herman, Paris, 1972.

أولاً، فعل القول ، ويراد به إطلاق ألفاظ في جمل مفيدة سليمة التركيب، وذات دلالة، تحمل في طياتها محاولات قضوية وإخبارية. ومن ثم، تشتمل على مستوى صوتي وتركيبى ودلالي، مثل: "أشكرك يا علي".

وثانياً، الفعل المتضمن في القول: وهو الفعل الإنجازي، وهو يحدد الغرض المقصود بالقول، كصيغة الأمر في هذه الجملة: "انتظري اللحن الجديد".

وثالثاً، الفعل الناتج عن القول، وهو ما ينتج عن القول من آثار لدى المخاطب إثر فعل القول، كإقناع المخاطب، وحثه، وإرشاده، وتوجيهه، أو تضليله... وتحضر هذه المستويات الثلاثة للفعل الكلامي جميعها في الوقت ذاته، ودرجة متفاوتة، وهي التي تجعل هذا الفعل الكلامي كاملاً.

وعلاوة على ذلك، يميز أوستين بين الجمل الخبرية والجمل الإنجازية ، وتتنوع هذه الأقوال الإنجازية إلى أقوال ظاهرة وأقوال مضمرة. فالأقوال الإنجازية قد تكون لها قوة حرفية ، مثل: الاستفهام، والتمني، والأمر... وقد تكون لها قوة إنجازية حوارية وسياقية، مثل: الالتماس، والإرشاد، والتهديد، والتحسر، ...

ويعني هذا كله أن الفعل الكلامي ينقسم إلى ثلاثة أنواع: فعل القول، والفعل المتضمن في القول، والفعل الناتج عن القول، وقد لا يدل الفعل المتضمن في القول على دلالاته المباشرة، بل يفيد معنى إنجازياً آخر غير مباشر يحدده سياق القول. بتعبير آخر، للجملة الواحدة ثلاثة مستويات: محتواها القضوي، وهو مجموع معاني مفرداتها، والقوة الإنجازية الحرفية، وهي قوة مدركة مقالياً، والقوة الإنجازية المستلزمة التي تدرك مقامياً. ويعني هذا أن أوستين يربط الأقوال بالأفعال، والمقال بالمقام. فأن نقول كلاماً، يعني أننا ننجز فعلاً. ومن هنا، فنظرية الأفعال الكلامية تتبني على فعل القول (قول شيء ما) الذي يتخذ مظهراً صوتياً، وتركيبياً، ودلالياً، والفعل المتضمن في القول (إنجاز فعل معين ضمن قول ما)، وقد يكون فعلاً مباشراً أو غير مباشر، والفعل الناتج عن القول (الآثار المترتبة عن قول شيء ما). ويتميز الفعل الكلامي بالمطابقة مع

الواقع والسياق، والتعبير عن حالة نفسية، والقدرة على الإنجاز، واختلافه باختلاف منزلة المتكلم من المتلقي، والاختلاف في أسلوب الإنجاز، واختلاف القوة الإنجازية...¹⁵⁶

ويمكن تقسيم أفعال الكلام – حسب ما ورد في هذه القصيدة الشعرية- إلى الجمل الإنجازية التالية:

□ **الجملة التقريرية:** وتفيد تأكيد المتكلم وإقراره لبعض الوقائع والأحداث في الواقع الخارجي، مثل:

"إني أنا النأي الذي لا تنتهي أنغامه، ما دام في الأحياء"
فأنا السعيد بأني متحول
عن عالم الآثام، والبغضاء"

□ **الجملة الطلبية أو الأمرية:** وتحضر في توجيه المتكلم طلباً للمخاطب لإنجاز فعل ما، مثل:

"فاهدم فؤادي ما استطعت، فإنه سيكون مثل الصخرة الصماء"

"فارموا إلى النار الحشائش..، والعبوا يا معشر الأطفال تحت سمائي"

"وإذا تمردت العواصف، وانتشى بالهول قلب القبة الزرقاء"

"ورأيتموني طائراً، مترنماً فوق الزوابع، في الفضاء النائي"

"فارموا على ظلي الحجارة، واختفوا خوف الرياح الهوج والأنواء.."

وهناك، في أمن البيوت، تطارحوا غث الحديث، وميت الآراء"

"وترنموا - ما شئتم - بشتائمي وتجاهروا - ما شئتم - بعدائي"

○ **الجملة البوحية أو الإفصاحية:** تعبر عن الحالة النفسية للمتكلم، مثل:

وأسير في دنيا المشاعر، حالماً، غرداً- وتلك سعادة الشعراء

أصغي لموسيقى الحياة، ووحىها وأذيب روح الكون في إنشائي

وأصيح للصوت الإلهي، الذي يحيي بقلبي ميت الأصداء

¹⁵⁶ - راجع: جون أوستين: نظرية أفعال الكلام العام، ترجمة: عبد القادر قينيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2006م.

"سَأَظِلُّ أَمْشِي رَعْمَ ذَلِكَ، عَارِظاً
 "أَمْشِي بِرُوحِ حَالِمٍ، مَتَوَهِّجٍ
 النُّورَ فِي قَلْبِي وَبَيْنَ جِوَانِحِي
 قِيْثَارَتِي، مَتَرْنَمًا بِغَنَائِي"
 فِي ظُلْمَةِ الْأَلَامِ وَالْأَدْوَاءِ"
 فَعَلَامٌ أَخْشَى السَّيْرَ فِي الظُّلُمَاءِ!"

④ الجملة الوعدية: تفيد التزام المتكلم بإنجاز فعل في الزمان المستقبل، مثل:

"فَاهْدُمُ فُؤَادِي مَا اسْتَطَعْتُ، فَإِنَّهُ
 لَا يَعْرِفُ الشُّكُوى الذَّلِيلَةَ - وَالْبُكَاءَ،
 "وَيَعِيشُ جَبَّاراً، يَحْدَقُ دَائِماً
 وَاملاً طَرِيقِي بِالْمَخَافِ، وَالدَّجَى ،
 وَانْشُرْ عَلَيْهِ الرُّعْبَ، وَانْثُرْ فَوْقَهُ
 "سَأَظِلُّ أَمْشِي رَعْمَ ذَلِكَ، عَارِظاً
 سَيَكُونُ مِثْلَ الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ"
 وَضَّرَاعَةَ - الْأَطْفَالِ وَالضُّعْفَاءِ
 بِالْفَجْرِ..، بِالْفَجْرِ الْجَمِيلِ، النَّائِي
 وَزَوَابِعِ الْأَشْوَاكِ، وَالْحَصْبَاءِ
 رُجْمَ الرَّدَى ، وَصَوَاعِقَ الْبَأْسَاءِ"
 قِيْثَارَتِي، مَتَرْنَمًا بِغَنَائِي"

إِنِّي أَقُولُ - لَهُمْ - وَوَجْهِي مُشْرِقٌ
 « إِنَّ الْمَعَاوِلَ لَا تَهْدُ مَنَاكِبِي
 "فَارْمُوا إِلَى النَّارِ الْحَشَائِشَ..، وَالْعَبْوَا
 "وَإِذَا تَمَرَّدَتِ الْعَوَاصِفُ، وَانْتَشَى
 "وَرَأَيْتُمُونِي طَائِراً، مَتَرْنَمًا
 "فَارْمُوا عَلَى ظِلِّي الْحَجَارَةَ، وَاخْتَفُوا
 وَهُنَاكَ، فِي أَمْنِ الْبُيُوتِ، تَطَارَحُوا
 "وَتَرْنَمُوا - مَا شِئْتُمْ - بِشَتَائِمِي
 أَمَا أَنَا فَأَجِيبُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ
 "مَنْ جَاشَ بِالْوَحْيِ الْمُقَدَّسِ قَلْبُهُ
 وَ عَلَى شِفَاهِي بِسْمَةِ اسْتِهْزَاءٍ :
 وَالنَّارَ لَا تَأْتِي عَلَى أَعْضَائِي
 يَا مَعْشَرَ الْأَطْفَالِ تَحْتَ سَمَائِي"
 بِالْهَوْلِ قَلْبُ الْقَبَةِ - الزَّرْقَاءِ"
 فَوْقَ الزَّوَابِعِ، فِي الْفَضَاءِ النَّائِي
 خَوْفَ الرِّيَّاحِ الْهُوجِ وَالْأَنْوَاعِ..
 غَتَّ الْحَدِيثِ، وَمَيَّتَ الْأَرَاءِ"
 وَتَجَاهَرُوا - مَا شِئْتُمْ - بِعِدَائِي"
 وَالشَّمْسُ وَالشَّفَقُ الْجَمِيلُ إِزَائِي :
 لَمْ يَحْتَفِلْ بِحَجَارَةِ الْفُلُتَاءِ «

٦٦ **الجملة التصريحية:** ويقصد بها إعلان المتكلم عن إنجاز فعل، يفيد تغييراً مرتقياً على مستوى العالم الخارجي، مثل:

سَأَعِيشُ رَغَمَ الذَّاءِ وَالْأَغْدَاءِ كَالنَّسْرِ فَوْقَ الْقِمَّةِ الشَّمَاءِ
أَرْنُو إِلَى الشَّمْسِ الْمُضِيئَةِ... هَازِئاً بِالسُّحُبِ، وَالْأَمْطَارِ، وَالْأَنْوَاءِ

وعليه، فالشاعر يثبت، ويقرر، ويؤكد. وفي الوقت نفسه، يأمر، ويطلب، ويعد، ويصرح، ويبوح. وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن المقام الذي يجمع المتكلم بالمخاطب هو مقام اختلاف وتناوب وصراع جدلي.

الفرع السادس: البوليفونية اللسانية أو التلفظية

تعرف فرانسواز أرمينكو (Françoise Armengaud) الحوارية بأنها "مكون لكل كلام، وتعرف كتوزيع لكل خطاب إلى لحظتين تلفظيتين توجدان في علاقة حالية، ويقدم المبدأ الحوارية من خلال الحدود التالية: كل تلفظ يوضع في مجتمع معين لابد من أن ينتج بطريقة ثنائية، تتوزع بين المتلفظين الذين يتمرسون على ثنائية الإصااتة وثنائية العرض، على حد تعبير فرانسيس جاك، وإن كل كلام إلا وله مالكان تقريبيان، وربما كان من المضبوط القول بأن سيدة الكلام الحوارية هي العلاقة التخاطبية ذاتها." ¹⁵⁷

بمعنى أن الملفوظ التخاطبي كلام دال، مادام يتموضع في مجتمع المتحاورين والمتناظرين. ومن ثم، يمتلكون علاقات حوارية وتخاطبية. ومن ثم، تقوم الحوارية على عرض الملفوظات المتبادلة، فتترابط الحوارات الحالية مع الحوارات السابقة والحوارات اللاحقة.

علاوة على ذلك، يمكن الحديث عن أنواع من الحوارية، فهناك حوارية حجاجية فلسفية وتداولية كما عند فرانسيس جاك، وحوارية أدبية كما عند الروسي ميخائيل باختين، وحوارية بوليفونية لسانية ولغوية كما عند أزوالد

¹⁵⁷ - فرانسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، ترجمة: د. سعيد علوش، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى سنة 1987م، ص: 112.

دوكرو. كما تنقسم الحوارية أيضا إلى حوارية صريحة، وحوارية مضمرة، وحوارية متعددة الأصوات.

وتحقق الحوارية مجموعة من الوظائف والأهداف، " نجد في الدرجة الأولى أنها تمنح للتلفظ طبيعة نسبية وتفاعلية. وتحكم في الدرجة الثانية عند المتكلمين- وأكثر في اللحظات التلفظية – نشاطين لايفترقان عن إرادة القول والفهم: في الدلالة والفهم. حين، تكون العلاقة التخاطبية غير متعادلة، أو حين تكون موضوعا لنفي صراعي في الخطاب. وتحكم الحوارية في الدرجة الثالثة الدلالة العميقة للتلفظ: مادامت الآلية الإحالية والمضمون القضوي، والقوة الإنجازية للجملة في وضعية تخاطبية.

وتعد آثار الحوارية في مفهوم المتكلم هامة بصفة خاصة. إذ تلغي استقلال الفاعل المتكلم تجاه الدلالات الموصلة. ويحيل التحليل المتعالي، في علاقة بهذا، لا على الفاعل، بل على العلاقة التخاطبية نفسها.¹⁵⁸

ومن هنا، تتجاوز الحوارية بنية الجملة، مادام التخاطب قائما على السؤال والجواب، وتجاوز للمتكلم إلى العلاقة التخاطبية التي تجمع بين المتكلم والمتلقي، ووجود إحالة على الأشخاص، وإحالة على العالم سياقاً ومقاماً.

أما فيما يخص الحوارية المتعددة في الأدب، فتبني على تعددية في الأطاريح، والأفكار، والإيديولوجيات، ووجهات النظر، وتعدد في الرواة والسراد، وتعدد في اللغات واللهجات والأساليب، واعتماد السخرية، والباروديا، والتهجين، والأسلبة، والتناص. بمعنى أنها رواية تفاعلية نسبية، تحتكم إلى ديمقراطية السرد والرؤية والإيديولوجيا.

ومن هنا، فالقصيدة - التي نحن بصدد دراستها- لا تحمل صوتاً شعرياً واحداً، بل هناك أصوات متعددة، وهي مختلفة من حيث الأفكار والمعتقدات والإيديولوجيات. فنجد على مستوى الإرسال : صوت أبي القاسم الشابي، وصوت بروميثيوس، وصوت الجبار، وصوت الشاعر الضمني...في حين،

158 - فرانسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، ص: 112.

نجد ، على مستوى التلقين، صوت المتلقي الضمني، وصوت المخاطب المفرد، وصوت المخاطبين بالجمع، وصوت الأعداء، وصوت الجمع، وصوت الوشاة، والحاسدين ، والمغتابين، والهادمين، والحاquدين...إذاً، هناك بوليفونية في الأصوات الشعرية، صراحة أو إضماراً. ومن جهة أخرى، هناك بوليفونية فكرية وإيديولوجية عبارة عن فعل ورد فعل. ومن ثم، يدافع الشاعر عن فلسفته في الحياة، وهي فلسفة النور والقوة والتحدى والأمل...في حين، ثمة فلسفة مقابلة هي فلسفة الضعف والاستسلام والشك والهدم والظلمة. ويتبين لنا أن هناك صراعاً جدياً قائماً على العدوان والكرهية، والتنافر بين الذات المتكلمة والمخاطب:

"فاهدم فؤادي ما استطعت، فإنه	سيكون مثل الصخرة الصماء"
لا يعرف الشكوى الذليلة والبكا،	وضراعة - الأطفال والضعفاء
"ويعيش جبّاراً، يحدّق دائماً	بالفجر...، بالفجر الجميل، النائي
واملاً طريقي بالمخاوف، والدجى ،	وزوابع الأشواك، والحصباء
وانشر عليه الرعب، وانثر فوقه	رُجم الردى ، وصواعق البأساء"
"سأظل أمشي رغم ذلك، عازفاً	قيثارتي، مترنماً بغنائي"
"أمشي بروح حالم، متوهج	في ظلمة الآلام والأدواء"
النور في قلبي وبين جوانحي	فعلام أخشى السير في الظلماء!"
"إني أنا النائي الذي لا تنتهي	أنغامه، ما دام في الأحياء"
"وأنا الخضم الرخب، ليس تزيده	إلا حياة سطورة الأنواع"
أما إذا خمدت حياتي، وانقضى	عُمري، وأخرست المنية نائي"
"وخبا لهيب الكون في قلبي الذي	قد عاش مثل الشعلة الحمراء
فأنا السعيد بأني متحوّل	عن عالم الآثام، والبغضاء"
"لأنوب في فجر الجمال السرمدي	وأرتوي من منهل الأصواء «
وأقول للجمع الذين تجشّموا	هذمي وودّوا لو يخرّ بنائي
ورأوا على الأشواك ظلي هامداً	فتخيلوا أنني قضيت دُماني

وجدوا..، ليشؤوا فوقه أشلاني	وغدوا يشبؤون اللهب بكل ما
لحمي، ويرتشفوا عليه ديماني	ومضؤا يمدؤن الخوان، ليأكلوا
وعلى شفاهي بسمة استهزاء :	إني أقول - لهم - ووجهي مشرق
والنار لا تأتي على أعضائي	« إنَّ المعاول لا تهدُّ مناكبي
يا معشر الأطفال تحت سمائي	"فارموا إلى النار الحشائش..، والعبوا
بالهول قلب القبة الزرقاء"	"وإذا تمردت العواصف، وانتشى
فوق الزوابع، في الفضاء النائي	"ورأيتموني طائراً، مترنماً
خوف الرياح الهوج والأنواع.."	"فارموا على ظلي الحجارة، واختفوا
غث الحديث، وميت الآراء"	وهناك، في أمن البيوت، تطارحوا
وتجاهروا - ما شئتم - بعدائي	"وترنموا - ما شئتم - بشتائمي
والشمس والشفق الجميل إزائي :	أما أنا فأجيبكم من فوقكم
لم يحتفل بحجارة الفلستاء «	"من جاش بالوحي المقدس قلبه

إذاً، ثمة بوليفونية متصارعة ، قوامها الحب والكراهية، والظلمة والنور، والسلام والحرب، والحب والكراهية، والبناء والهدم، والحرية والعبودية، والعدالة والظلم...ومن ثم، فقد كان الشاعر يدافع عن قيم إيجابية أصيلة مثل: الحب، والقوة، والحرية، والحياة، والسلام،...بينما يعتق أعداؤه قيما سلبية تتجلى في: العداوة، والكراهية، والحق، والرعب، والهدم، والموت...

الفرع السابع: مقاصد الملفوظ

لقد اهتمت الدراسات التداولية في بداية الأمر بالمتكلم باعتباره قوة عليا، يمتلك سلطة متفوقة، فيوجه للمخاطب الذي يكون في مرتبة دنيا مجموعة من الأوامر لتنفيذها بطريقة ميكانيكية، دون تردد أو مناقشة، كما هو حال الأوامر الدينية والعسكرية، ويسمى هذا بالتواصل التوجيهي. لكن هناك من يرفض هذا التصور الميكانيكي، فيعتبر المقصدية قاسما مشتركا بين كل من المتكلم

والمتلقي، ولا فرق بينهما إلا من باب الأخذ بزمام المبادرة. لكن هناك من يرى أن المقصدية قد يتحكم فيها المتلقي، فيجعل المتكلم في قبضة يده، فيتصرف فيه كيفما يشاء، ثم يضطر المتكلم إلى تكييف خطابه حسب رغبات المتلقي، بل قد يكون ناطقا بلسانه¹⁵⁹.

ويعني هذا أن النص الأدبي باعتباره جملا وملفوظات لغوية يحوي مجموعة من المقاصد المباشرة والضمنية التي يعبر عنها المتكلم أو المتلقي أو هما معا. بتعبير آخر، ثمة مقاصد أولية تتعلق بالمتكلم المرسل قد يكون شاعرا - مثلا -، فيعبر عن بعض مقاصده كالحب، والخوف، والاعتقاد، والتمني، والكراهية. وفي المقابل، ثمة مقاصد ثانوية، تتعلق بالمتلقي السامع الذي عليه أن يفهم مقاصد الشاعر المبدع، ويتعرف إلى ظروفه وحالاته النفسية، والذهنية، والوجدانية.

وإذا انتقلنا إلى النص الأدبي، فإن المبدعين والشعراء يوظفون كلمات وتعابير وأسماء أعلام لها مقصدية مباشرة وغير مباشرة، قد تدرك بطريقة ظاهرة، أو تفهم بالتضمنين والتلميح. وهكذا، فالمقاربة التداولية تتعامل مع النص الأدبي والخطاب الإبداعي باعتباره مقصدية سياقية، ينبغي استحضارها بغية تأويل النص تأويلا صحيحا وسليما.

وعليه، يحمل نصنا هذا لسانيا وسياقيا مقصديات مباشرة وغير مباشرة، تكمن في ضرورة التمثل بفلسفة القوة والتحدي والتضحية من أجل التحرر من قبضة الأدواء والأعداء على حد سواء، ونبذ الخلافات الداخلية، وترك الصراعات الشخصية. وهكذا، فإنه يستحيل في بعض الأحيان - كما تقول كاترين أوريكشيوني-، وهي تتحدث عن القرائن الإشارية: "الوصف المناسب للأداء الكلامي، دون الاهتمام بمحيطها غير الكلامي. بشكل عام، لا يمكن دراسة المعنى، دون تحديد صلته بالمرجع. ولا يمكن تحليل القدرة اللسانية

¹⁵⁹ - محمد مفتاح: دينامية النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 1987م، ص: 46.

بتفريغ القدرة الإيديولوجية التي تنتظم عليها، ولا يمكننا وصف الإرسالية، دون الاهتمام بالمقام الذي تأسس عليه، والنتائج التي تهدف إليها.¹⁶⁰

وعلى العموم، تحمل القصيدة الشعرية مقصديتين: الأولى مقصدية إيجابية تدعو المتلقي، إحياء وإضماراً، إلى تمثل فلسفة القوة والحياة عبر التشبث بالأمل، والطموح، والتحدي، والشجاعة، والفرح، والاستجابة لله والطبيعة. أما المقصدية الثانية، فهي مقصدية سلبية تقوم على الحقد والعدوان والموت والتطرف، مع إدانة المخاطب لوماً وتقريعاً وتعنيفاً وسخرية، مادام قد اختار فلسفة هدم الآخرين ترويعاً وتخويفاً، ونبش أعراضهم قذفاً ونميمةً وغيبةً وحسداً، والاعتداء عليهم مادياً ورمزياً.

ومن هنا، يتضح لنا أن هذه القصيدة الشعرية تعبير صادق وجلي عن ثنائية النور والظلمة، وثنائية الحياة والموت. كما أنها قصيدة ملحمية تتغنى بفلسفة القوة والحياة والأمل والحب والبناء، في مواجهة فلسفة الضعف، والخنوع، والاستسلام، والحقد، والكرهية، والهدم.

الفرع الثامن: البنية العاملية

مادمنا نتحدث عن السياق التواصلية للبنية التلفظية، فلا ضير من الحديث عن البنية العاملية داخل هذه القصيدة الشعرية الملحمية، باستحضار الضمائر والأزمنة والأمكنة. ومن ثم، يمكن لنا الحديث عن ذاتين متقابلتين: ذات متكلمة مرسل، وذات مخاطبة مستمعة ومتلقية (المرسل إليه). فالذات الأولى هي ذات الشاعر (بروميثيوس- الجبار) التي تتوارى وراء ضمائر التكلم، وصيغ التملك، وأفعال المضارعة والحضور، والصيغ الانفعالية، وصيغ التقويم. أما عن الموضوع المرغوب فيه، فهو الإقبال على الحياة، والتغني بنور الحرية، والتوق إلى الغد المعسول:

سَاعِشْ رَغْمَ الدَّاءِ وَالْأَعْدَاءِ كَالنَّسْرِ فَوْقَ الْقِمَّةِ الشَّمَاءِ

أَزْنُو إِلَى الشَّمْسِ الْمَضِيَّةِ... هَازِئاً بِالسُّحْبِ، وَالْأَمْطَارِ، وَالْأَنْوَاءِ

¹⁶⁰ - كاترين أوريكشيوني: فعل القول من الذاتية في اللغة، ترجمة: محمد نظيف، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى سنة 2007م، ص: 11.

لا أرمقُ الظلَّ الكئيبَ..، ولا أرى
وأسيرُ في دُنْيا المشاعرِ، حالماً،
أصغي لموسيقى الحياةِ، ووَحيها
وأصيحُ للصَّوتِ الإلهيِّ، الَّذي
وأقولُ للقَدَرِ الَّذي لا يَنْثني
«-لا يطفئُ اللهبَ الموجَّجَ في دمي
"فاهدمُ فؤادي ما استطعتَ، فإنَّه
لا يعرفُ الشَّكوى الذليلةَ- والبُكا،
"ويعيشُ جباراً، يحدِّقُ دائماً
واملاً طريقي بالمخاوفِ، والدَّجى،
وانشُرْ عليه الرُّعبَ، وانثُرْ فوقَه
"سأظلُّ أمشي رُغمَ ذلكَ، عازفاً

ما في قرارِ الهَوَّةِ السوداءِ...
غرداً- وتلكَ سعادةُ الشعراءِ
وأذيبُ روحَ الكونِ في إنشائي
يُحيي بقلبي ميّتَ الأصداءِ
عن حربِ آمالي بكلِّ بلاءٍ :
موجُ الأسى، وعواصفُ الأرزاءِ
سيكونُ مثلَ الصَّخرةِ الصَّماءِ"
وضراعةِ- الأطفالِ والضُّعفاءِ
بالفَجْرِ..، بالفجرِ الجميلِ، النَّائي
وزوابعِ الأشواكِ، والحَصباءِ
رُجَمَ الرَّدَى، وصواعقِ البأساءِ"
قيثارتي، مترنماً بغنائي"

بيد أن ثمة مجموعة من المعوقات التي تقف في وجه الذات العاشقة البطلة (الشاعر)، في سعيها لامتلاك موضوعها الأثير لديها (نور الحياة). كما يتجلى ذلك واضحاً في: العدوان، والرعب، والخوف، والظلمة، والموت، والحد، والوشاية، والحسد، والغيبة، والنميمة...

وأقولُ للجَمْعِ الذين تجشَّموا
ورأوا على الأشواك ظليَّ هامداً
وغدوا يشبُّونَ اللَّهيبَ بكلِّ ما
ومضُّوا يمدُّونَ الخوانَ، ليأكلوا
إنِّي أقولُ - لهُم - ووجهي مُشرقٌ
« إنَّ المعاولَ لا تهدُّ مناكبي
"فارموا إلى النَّارِ الحشائشَ..، والعبوا
"وإذا تمرَّدتِ العواصفُ، وانتشى
"ورأيتُموني طائراً، مترنماً

هَدَمي وودُّوا لو يخرُّ بنائي
فتخيلوا أنِّي قَضَيْتُ دِمائي
وجدوا..، ليشوُّوا فوقَه أشلائي
لحمي، ويرتشفوا عليه دِمائي
وعلى شِفاهي بِسَمةِ اسْتِهزاءٍ :
والنَّارَ لا تأتي على أَعْضائي
يا مَعشَرَ الأطفالِ تحتَ سَمائي"
بالهولِ قَلْبَ القَبَةِ الزَّرْقاءِ"
فوقَ الزَّوابعِ، في الفُضاءِ النَّائي

"فارموا على ظلي الحجارة ، واختفوا
وهناك، في أمن البيوت، تطارحوا
وترنموا - ما شئتم - بشتائمي
أما أنا فأجيبكم من فوقكم
"مَنْ جاشَ بِالوَحْيِ المقدسِ قلبه
خَوْفَ الرِّيحِ الهوجِ والأنواء.."
غثَّ الحديث، وميتَ الآراءِ"
وتجاهروا - ما شئتم - بعدائي"
والشمسُ والشفقُ الجميلُ إزائي :
لم يحتفلَ بحجارة الفلـتاء »

في حين ، تتمثل العوامل المساعدة للذات في المفردات التالية: (النسر - بروميثيوس - الشمس المضيئة - الحلم - الموسيقى - الطبيعة - الصوت الإلهي - الجبار - الصخرة الصماء - القيثارة - الغناء - الناي - الجمال - النور - الطائر - الوحي المقدس ...). أما الذات المعاكسة داخل القصيدة الشعرية ، فتؤشر عليها مجموعة من الدوال اللغوية (الهدم - الجمع - اللهيب - المعاول - النار - الحشائش - العواصف - الهول - الحجارة - أمن البيوت - الخوف - الدجى - زوابع الأشواك - الحصباء - الرعب - رجم الردى - صواعق البأساء).

بيد أن المرسل الحقيقي الذي يتحكم في هذا التركيب العاملي يتمثل في الشاعر الجبار أو بروميثيوس. في حين، يتمثل المستفيد في الشاعر نفسه، والإنسان بصفة عامة، سواء أكان صديقا أم عدوا، كما يتضح ذلك جليا في هذا البيتين الشعريين:

أما أنا فأجيبكم من فوقكم
"مَنْ جاشَ بِالوَحْيِ المقدسِ قلبه
والشمسُ والشفقُ الجميلُ إزائي :
لم يحتفلَ بحجارة الفلـتاء »

ويتبين لنا - من خلال استقرائنا لدلالات النص - أن الحقول المعجمية والدلالية التي تزخر بها القصيدة الشعرية تنحصر في مجموعة من الحقول، مثل : حقل الذات، وحقل الطبيعة، وحقل الحياة، وحقل الموت، وحقل الحب، وحقل الكراهية، وحقل السلام، وحقل الزمان، وحقل المكان، وحقل القيم... ويمكن إجمالها في تشاكل دلالي وسيميائي يتمثل في ثنائية النور والظلمة أو ثنائية الحياة والموت.. ويعني هذا أن الظلمة عداوة، وكراهية، وحرب، وموت. بينما

النور حب، وأمان، وسلام، وحياة. ومن ثم، تتجلى البنية الدلالية العميقة المولدة للقصيدة، على مستوى السطح والظاهر، في ثنائية النور والظلمة. ويعني هذا أن القصيدة الشعرية تتأرجح بين واقع الظلمة ونور الأمل. وبتعبير آخر، تتردد بين حاضر الظلمة والكراهية والعدوان من جهة، وغد النور والسلام والحب من جهة أخرى.

لذا، سيكون المربع السيميائي لهذه القصيدة الشعرية مبنيا على العلاقات المنطقية التالية:

1- علاقات التضاد: النور والظلمة.

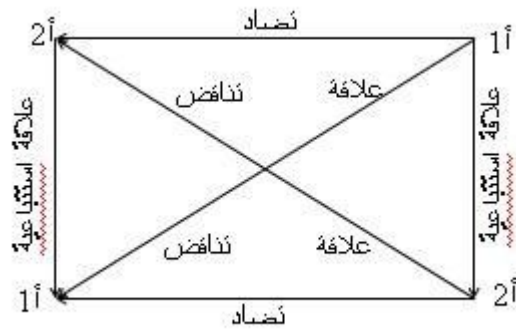
2- علاقات شبه التضاد: لا ظلمة ولا نور.

3- علاقات التناقض: الظلمة ولا ظلمة، ونور ولا نور.

4- علاقات التضمن: الظلمة ولا نور، والنور ولا ظلمة.

النور

الظلمة



لا ظلمة

لا نور

وخلاصة القول، نستنتج، مما سبق ذكره، أن المقاربة القرآنية هي التي تدرس الخطاب الشعري، في ضوء المعينات التلفظية، والقرائن الإشارية، والسياقات

الزمانية والمكانية. ويعني هذا أن القصيدة لا يمكن فهم معناها، وتمثل سياقها الخارجي والتداولي، إلا بالتركيز على عمليات التلطف القائمة على أطراف التواصل والسياق الفضائي. وقد تبين لنا، بكل وضوح، أن هذه المقاربة القرآنية واللغوية تسعفنا كثيرا في تحديد نظام التواصل، ومعرفة سياقه التداولي الخارجي. بالإضافة إلى التمييز بين ماهو ذاتي وماهو موضوعي، ومعرفة خاصية الاندماج والاندماج على المستوى السيميائي، وتبيان مختلف العوامل التركيبية التي تتحكم في تشكيل البنية الدلالية الخطابية، مع استخلاص البنية التوليدية المنطقية التي تكون سببا في توليد النص الشعري إن تفكيكا وتركيبا، وإن سطحا وعمقا.

ومن جهة أخرى، فلقد تبين لنا - مما سبق ذكره- أن الشاعر أبا القاسم الشابي كان غارقا في مشاكل مجتمعه إلى أخص قدميه، حتى في قصائده الذاتية والرومانسية. وقد أثبت لنا الدليل اللساني والتلفظي والسياقي، بكل قرائنه ومعيناته ومؤشرات التداولية، مدى اندماج الشاعر في واقعه الموضوعي ذاتا، وزمانا، ومكانا، وسياقا. وأكد لنا أيضا مدى انصهاره في مجتمعه انخرطا والتزاما وتجذيرا. ومن هنا، لم يكن أبو القاسم الشابي شاعرا سلبيا منعزلا، أو كائنا ذاتيا ضعيفا مقهورا، يتلذذ بالهروب من الواقع المنخور إلى الطبيعة الصامتة والصائتة بغية التغني بعالم الغاب المثالي، والاتحاد به حلولا ووصالا وكشفا، بل كان - على العكس من ذلك- شاعرا مندمجا كل الاندماج في مجتمعه المنحط الموبوء، يتغنى فيه بنور الحياة، كارها ظلمة الموت.

الفصل الثالث:

تداوليات التلفظ في الشعر المعاصر

ديوان (غنج المجاز) لجمال أزر اغيد أنموذجاً¹⁶¹

¹⁶¹ - جمال أزر اغيد: غنج المجاز، شركة مطابع الأنوار المغاربية، وجدة، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2011م.

من يتأمل ديوان (غنج المجاز) للشاعر المغربي جمال أزرعيد، فسيخرج بانطباع أولي يتمثل في أن هذا الديوان الشعري يطّح كثيرا بالقرائن الإشارية التي تدل على حضور الشاعر في الزمان والمكان. ويؤكد هذا مدى اندماج الشاعر وتجذيره سيميائيا في الفضاء التواصلية مقالا، ومقاما، وسياقا.

ويلاحظ أن القصائد التي تضعف فيها الأنا والذات، وتتوارى وراء ضمير الغائب والضمير اللاشخصي (ضمير الغياب)، سرعان ما تنتهي بحضور الذات كما في قصيدة (أريج الثناء) التي استعمل فيها الشاعر ضمير المخاطب من بداية القصيدة حتى نهايتها، إلا أنه طعمها بالتلفظ الذاتي التواصلية (أنت في مقابل أنا)، والصيغ الانفعالية (يا حامل الحرف، ما أسعدك!)، وصيغ التحية والشكر (السلام عليك). ويعني هذا أن الشاعر، في قصيدة (أريج الثناء)، يستعمل ضمير المخاطب مشيدا بـرجل التعليم في عيده السنوي، وفي ذلك إحالة واضحة على حضور الشاعر المرسل باعتباره ذاتا وأنا حاضرة.

و سنحاول – الآن- مقارنة قصيدة شعرية من ديوان (غنج المجاز) هي قصيدة (مقاطع في الحرب) بغية اختبار المقاربة القرائنية – ذات البعد اللساني- تصورا وممارسة من جهة، وبنية ودلالة ووظيفة من جهة أخرى.

المطلب الأول: المعينات التواصلية الذاتية

تتقسم المعينات التواصلية الذاتية إلى معينات الذات أو المرسل، ومعينات المخاطب أو المرسل إليه. ويعني هذا أن ثمة قرائن إشارية دالة على حضور المتكلم وحضور المخاطب على حد سواء.

الفرع الأول: قرائن الذات أو المرسل

تتكون قصيدة (مقاطع في الحرب) من عشرين مقطعاً شعرياً مرقماً. ويعني هذا أن هذه القصيدة الشعرية مقطعية من حيث الفضاء النصي والبصري. ويتضح لنا، من خلال العنوان، أن القصيدة مبنية على تشاكل سيميولوجي يتمثل في ثنائية السلام والحرب، أو ثنائية الحب والكراهية. ومن ثم، ترتبط هذه القصيدة الشعرية الطويلة بالذات الشاعرة المرسل والمرسل إليه والمتكلمة حضوراً واندماجاً وتجذيراً في الزمان والمكان. ويتمثل حضور الشاعر في هذه القصيدة

عبر مجموعة من القرائن التعبيرية والوسائط اللغوية التلفظية التي يمكن حصرها في القرائن الإشارية التالية :

❶ **القرائن الإشارية** هي القرائن التي يتم التعبير عنها بواسطة الإشارات الجسدية أو اللفظية. من أمثلة هذه القرائن: الإيماءات، الميميكس، تعبيرات الوجه، نبرة الصوت، إلخ. هذه القرائن تلعب دوراً مهماً في التواصل البشري، خاصة في المواقف التي لا يمكن الاعتماد على الكلمات وحدها.

❷ **القرائن اللفظية** هي القرائن التي يتم التعبير عنها بواسطة الكلمات. من أمثلة هذه القرائن: الكلمات، الجمل، الفقرات، إلخ. هذه القرائن هي الأساس في التواصل اللفظي، وتلعب دوراً حيوياً في نقل المعلومات والتعبير عن المشاعر.

❸ **القرائن الجسدية** هي القرائن التي يتم التعبير عنها بواسطة الجسد. من أمثلة هذه القرائن: الميميكس، تعبيرات الوجه، الإيماءات، إلخ. هذه القرائن تلعب دوراً مهماً في التواصل البشري، خاصة في المواقف التي لا يمكن الاعتماد على الكلمات وحدها.

❹ **القرائن الصوتية** هي القرائن التي يتم التعبير عنها بواسطة الصوت. من أمثلة هذه القرائن: نبرة الصوت، سرعة الكلام، إلخ. هذه القرائن تلعب دوراً مهماً في التواصل البشري، خاصة في المواقف التي لا يمكن الاعتماد على الكلمات وحدها.

❺ **القرائن اللفظية** هي القرائن التي يتم التعبير عنها بواسطة الكلمات. من أمثلة هذه القرائن: الكلمات، الجمل، الفقرات، إلخ. هذه القرائن هي الأساس في التواصل اللفظي، وتلعب دوراً حيوياً في نقل المعلومات والتعبير عن المشاعر.

0000000 0000000 000000000 000000 0000 0000 000000000 00000000 00 0000000 000
 00000000 000 0000 0000000000 0000000 000000000 000000 000 00000000
 00 000000000 000 000 0000 000000000 00000000 00000 000 0000000000 00000000
 00000000 000000000 00 000000 000 000000000 00000000 000000 000000 00000000
 0000000000 0000000000 0000000000 0000000000 0000000000

[illegible][illegible]

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX XXXXXXXXXXXX XXXXXXX

000000 0000 0000 0000 00000000 00000000 0000000000 0000000000 00000000 0000
 000 000000 0000 0 0000000000 00000000 00 00 00000000 0000000000 00000000
 00 00 000000 000000 0000000000 000 000000 000000 00000000 00000000 0000000000
 00 00 00000 00000 0000000 0000000 0000000 0000000 0000000 0000000 0000000
 000000 00000 0000000000 000000 000000 000000 0 00000 00000000 000000 000000
 00000000 00000 0000000000 000000 000000 000000 0 00000 00000000 000000 000000
 00000000 00000 0000000000 000000 00000000 00000000 00000000 00000000 00000000 0000

00000000 00000000 000000 00000000 00000 00 00000 000 000 0 00000000
 00000000 000...000000 000 0000000 — 00000000 00 0000000 0000 0000
 000 000000 00...0000000000 0000 0000000 000 0000000 000 0000000 000000000000
 00000000 00000000 000000 000 00 0 000000 000 00 0000000 00000000 0000000 00
 000 00000000000000 0000000000 0000000000 00000000 00 00000000 00000000
 00000000 00000000 00000 0000000000 00 00000000000000 00000000 000000 0000 0000
 0000000 000 00000000000000 00000000 00000 0000 — 000000000 0000 00 00000000 0000

□□□□□ □□□ □□

□□□□ □□□□□ □□□□ □□□□ □□

□□□□ □□□□ □□

000000 000 00000000 000

□□□□□□ □□□ □□

□□□ □□□□ □□□□□□ □□

000000

□□□□□ □□□ □□□□□□□ □□□□ □□

□ □ □ □

☐	☐	☐	☐	☐	☐	☐	☐	☐	☐	☐	☐	☐	☐	☐	☐	☐	☐	☐	☐	☐	☐	☐	☐	☐	☐	☐	☐
--------------------------	--------------------------	--------------------------	--------------------------	--------------------------	--------------------------	--------------------------	--------------------------	--------------------------	--------------------------	--------------------------	--------------------------	--------------------------	--------------------------	--------------------------	--------------------------	--------------------------	--------------------------	--------------------------	--------------------------	--------------------------	--------------------------	--------------------------	--------------------------	--------------------------	--------------------------	--------------------------	--------------------------

□	□	□	□	□	□	□	□	□	□	□	□	□	□	□
---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---

...□□□□ □□ □□□

[illegible][illegible]

000000 000000 0000000 0000000 0000000 (0000000 000000 00 000000
 00...000000000 0000 00000 00000000 00000

[illegible]

111

...□□□□

□ □ □ □ □ □ □ □

□□□□□ □□□□□ □□

□□□□□□ □□□□□□□ □□ □□□□□□ □□□□□□

...□□□□ □□ □□□□ □□□□ □□□ □□□□□ □□□

00 0

□ □ □ □ □

000

□□□□ □□.□□□□

□ □ □ □ □ □ □ □

□□□□□□ □□□□ □□□□□□ □□□□

111

□□□□□ □□□□□ □□ □□□□ □□□□□

الطبيعة والحب

الوطن

العدوان

الطبيعة والحب

الطبيعة والحب
الوطن
العدوان

— ١ ٢

الطبيعة والحب

الوطن

العدوان

الطبيعة والحب

الطبيعة والحب

الطبيعة والحب	الطبيعة والحب
الموضوع (الوطن)	الذات (الشاعر)
المعاكس (الحرب والعدوان)	المساعد (الحب).

ويتبين لنا — من خلال استقراءنا لدلالات النص — أن الحقول المعجمية والدلالية التي تزخر بها القصيدة الشعرية تنحصر في حقل الذات، وحقل الحب، وحقل الحرب، وحقل الطبيعة، وحقل السلام، وحقل المكان، وحقل الزمان، وحقل

القيم...ويمكن إجمالها في تشاكل دلالي وسيميائي يتمثل في ثنائية الحرب والسلام، أو ثنائية الحب والكراهية. ويعني هذا أن الحرب عداوة وكراهية. بينما السلام حب وأمان. ومن ثم، تتمثل البنية الدلالية العميقة المولدة للقصيدة على مستوى السطح والظاهر في ثنائية الحرب والسلام. ويعني هذا أن القصيدة الشعرية تتأرجح بين واقع الحرب وأمل السلام. وبتعبير آخر، تتردد بين حاضر الحرب والكراهية وغد السلام والحب.

لذا، سيكون المربع السيميائي لهذه القصيدة الشعرية مبنيا على العلاقات المنطقية التالية :

◆ □□□□□□ □□□□ □□□□□□ □□□□□□

◆ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□

◆ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□

◆ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□

□□□□□□ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□

□□□□□□

□□□□□□



□□□□ □□

□□□ □□

[illegible]

الفصل الرابع:

المعينات اللسانية في الخطاب الروائي

(الرواية السعودية أنموذجاً)

توجد مجموعة من الروايات العربية السعودية التي اشتغلت على المعينات التلفظية والقرائن الإشارية، سواء أكانت روايات كلاسيكية أم تجريبية أم تأصيلية ، نستحضر منها رواية (الفردوس اليباب) ليلي الجهني (1999م)¹⁶³ ورواية (طريق الحرير)¹⁶⁴ لرجاء عالم ، و رواية (سلمى)¹⁶⁵ و رواية (رجل جاء... وذهب) لغازي بن عبد الرحمن القصيبي¹⁶⁶ ، ورواية (يوم التقينا... يوم افترقنا) (2003م) لخالد الشيخ¹⁶⁷، تلك الروايات التي تتضمن مجموعة من المعينات والإشارات التلفظية والتداولية التي تتحكم في انبناء النص الروائي العربي بنية، ودلالة، ووظيفة.

¹⁶³ - ليلي الجهني: الفردوس اليباب، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، الطبعة الأولى سنة 1999م.

¹⁶⁴ - رجاء عالم: طريق الحرير، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 1995م.

¹⁶⁵ - غازي بن عبد الرحمن القصيبي: سلمى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 2006م.

¹⁶⁶ - غازي بن عبد الرحمن القصيبي: رجل جاء... وذهب، دار الساقى، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 2005م.

¹⁶⁷ - خالد الشيخ: يوم التقينا... يوم افترقنا، الدار الوطنية الجديدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 2003م.

المطلب الأول: تجليات المعينات في الرواية

تصور رواية (الفردوس اليباب) ليلي الجهني خطيئة صبا حينما تقترب مجموعة من الأخطاء (الزنا، والإجهاض، والانتحار)؛ بسبب طيشها أولا، وطيش عامر ثانيا، وانسياق صبا وراء رغباتها الشعورية واللاشعورية ثالثا، وسعيها كذلك لتحقيق نزواتها العارمة رابعا. بيد أن الرواية تدين الرجل الخائن اللعوب (عامر) الذي استغل سذاجة صبا، فأوقعها في خطيئة الزنا، ولم تنته علاقتهما بالزواج كما كان الأمر مسطرا في السابق بينهما، ولم يف عامر بوعده كما يجب، بل أنكر الجنين، وتهرب من الزواج وتبعاته، وتتكبر لصبا احتقارا وازدراء. ولم تجد صبا من حل سوى أن تضع حدا لحياة الجنين، وحدا لحياتها. مما دفع خالدة، وهي خطيبة عامر، والصديقة المقربة إلى صبا، لتعلن ثورتها العارمة على عامر، فتصب جام غضبها عليه سبا وشتما وضربا، وكذلك على أمه التي لم تحسن تربية ابنها الطائش اللعوب، ثم تحمله مسؤولية موت صبا وانتحارها:

" طرقت بابه بعنف هذا الصباح. انفتح الباب عن دهشته، وبدا كأن لم ينم حتى تلك الساعة، رغم أنه كان يرتدي منامته، هتف:

- خالدة؟!

فقلت بغل:

- ماتت صبا. لن أغفر لك، أبدا لن أغفر لك.

وبصقت في وجهه. كنت أريد أن أبصق في وجه العالم بأسره لحظتها. مسح لعابي بطرف كفه فيما اندفعت:

- سافل، حقير. كنت أعرف أن في أعماقك شيئا مريعا، خرابا، لكني لم أدر أن مرضا هناك يتآكلك.

وخلعت خاتم الخطبة، ورميت به وجهه:

-لا، صدقتي ليس مرضا. المرض يمكن شفاؤه. إنه وباء، أجل وباء قضى على صبا ، ولن أغفر لك كل ما فعلته بها. لعنة الله عليك، لعنة الله عليك حتى قيام الساعة.

لم أنتبه أن صوتي قد علا حتى جاءت خالتي- أمه- التي صرخت محتدة:
- ماذا حل بك؟ جننت؟ وأنت لم تسكت لها؟ (ثم التفت إلي) من هي صبا؟ وما دخل عامر بها، هه؟

كان الغضب المجنون يهصر الروح. الغضب الذي ظل يتورم في الأعماق منذ البارحة، الغضب الذي ظل يكبر ويكبر مثل وحش يلتهم التفاصيل الصغيرة التي مرت، والذكريات والأوراق والرسائل والكتب والشوارع والناس، ولا يتجشأ ولا تنفس عنه الكلمات ولا حتى الصراخ ولا الدمع. أجل، كان الغضب الحاقد يصرخ ملتاعا:

- اسأليه، اسألي فتاك الساحر من تكون صبا؟ لعنة الله عليه.
وبتهور طفقت أبصق في وجهه بجنون مريع قبل أن ألتفت إلى خالتي وأنا أهذي:

- لعنة الله عليك أنت أيضا. أنت التي حملت بذرتة الفاسدة. كان يجب أن تموتي قبل أن تنجبيه.

كنت أرقب شفتها السفلى، وهي تتدلى بتأثير الدهشة، وأرقب الدماء والألوان والملاح وهي تغادر وجهه، وقبل أن يتكلم أحدهما كنت قد نزلت بالدرج بسرعة.¹⁶⁸

تشغل ليلي الجهني، في روايتها النسائية، الضمير الشخصي الذي يتمثل في " أنا " " أنت "، أي صبا ، خالدة، فنلاحظ، في الرواية، محكيين قائمين على التشاكل والتوازي والتناوب، مرة تسترسل صبا في الحديث عن علاقة خالدة بعامر، وتكشف لها خيانتة وغدره وانحطاط أخلاقه، ومرة أخرى تتحدث خالدة

168 - ليلي الجهني: الفردوس اليباب، ص: 66-67.

عن عامر الخائن، وتلوم صبا على علاقتها غير الشرعية معه، دون أن تخبرها بذلك. أي : في الرواية قصتان متوازيتان: قصة صبا مع عامر، وقصة خالدة مع عامر. وهما متشاكلتان من حيث المعنى والمقصدية، ويتمثل هذا التشاكل الدلالي في الدفاع عن الأنثى (الدفاع عن صبا وخالدة معا)، والتسفيه بعامر الرجل الخائن الغادر بصفة خاصة، والتعريض بالرجل الشرقي بصفة عامة. ويعني هذا أن الضمير الشخصي (أنا ⇨ أنت) يحضر بصيغتين:

الصيغة الأولى: أنا صبا (الساردة) ⇨ (أنت خالدة (المسرودة لها).

الصيغة الثانية: أنا خالدة (الساردة) ⇨ أنت صبا (المسرودة لها).

والدليل على وجود حضور الساردة في الزمان والمكان هو وجود الضمائر الشخصية واسم العلم (صبا وخالدة):

" وإذ رأيته واقفا بجوارك ليلتها أردت أن أغني. أجل، كان الغناء هو كل ما تواثب إلى الذهن وذراعه تلتف حول ذراعك مثل أفعى. أردت أن أصرخ : خالدة، لا). وقفت الكلمات خلف الشفاه، وبدا أن العالم صاخب إلى حد ألا تسمعيني. ولكن ، ماذا أغني في تلك اللحظة، وأنا أرى عامرا الرجل الذي قال لي: (أحبك)، بكل طريقة ممكنة؛ قالها وهو يقبلني، قالها: وهو يهزني بعنف، ماذا أغني وأنا أراه وهو يلبسك – يا صديقتي التي لا تعرف شيئا – خاتم الخطبة؟!

كانت وجوه كثيرة تسبح في الفضاء الممتد بين عامر وبينني، حتى خاتم الخطبة كان يطفو قليلا ثم يغوص مثل وردة مربوطة بحجر. وميكائيل ينفخ في الصور والتفاصيل المذبوحة في قلبي تنتشر، تبعث عارية إلا من أساي. في آخر الأمر ياخالدة، كنت أنا أيضا قد تعريت أمام الشيطان فوق أرض الله وتحت سمائه. أتصدقين ياخالدة؟ مرت أيام كان الهواء يموت فيها مخنوقا بالبكاء الرابض على أطراف حلقي، وعامر مثل فأر في مصيدة يخاف أن أضع طفلنا/إثنا تحت قدميك وأسألك بالله وبأسمائيه الحسنى أن تنصفيني! ليته علم أنني لم أرد أكثر من أن أغني؛ كي يكف طفل مجروح بأحشائي عن

أن يضرع إلى الله أن يخسف بي الأرض أنا التي لم يبق إثم لم أرتكبه. أغني في انتظار أن يأتي رسول الواقعية صلاح أبو سيف كي يصورنا، لكن حتى صلاح أبو سيف خذني ليلتها. مات، أماته الواقع الذي لست أدري ماذا سأفعل به، بل ماذا سيفعل هو بي؟¹⁶⁹

يلاحظ في هذا النص مجموعة من المؤشرات القولية الدالة على حضور الساردة (صبا) قولاً وذاتاً وإنساناً كالضمائر والأفعال. ومن بين هذه الضمائر المتصلة والمنفصلة: أنا- لي- صديقتي- بيني- قلبي- أساي- جسدينا- حلقي- طفلنا- إثمنا- أني- أحشائي- بي...

أما الأفعال فهي: رأيته- أغني- أردت- أن أصرخ- تسمعيني- أرى- يقبلني- يهزني- أراه- كنت- قد تعريت- أسألك- تتصفيني- لم أرد- أرتكبه- يصورنا- خذني- لست- أدري- سأفعل به...

تدل هذه المؤشرات كلها على وجود الساردة في القصة أو الحكاية كراوية وشخصية محورية، ويعني هذا أن الرواية تصدر عن رؤية داخلية أو ما يسمى بالرؤية "مع". وتمتاز هذه الرؤية المصاحبة بحضور السارد أو الراوي، ومشاركته للشخصية في الحدث والمعرفة. ويعني هذا أن الراوي داخلي وخطابه قائم على التذويت (التركيز على الذات). وهذه الرؤية- كما هو معلوم - من سمات الرواية الجديدة، وخاصة الرواية المنولوجية أو رواية تيار الوعي كما عند جيمس جويس، وفيرجينيا وولف، وكافكا، ومارسيل برويت، وصمويل بيكيت...

كما أن الساردة "صبا" تعبير عن الباث الضمني، والمتلقي الضمني، وتستحضر الساردة التي يدل عليها ضمير: "أنا"، المسرودة لها، وهي خالدة. ويسهم الضمير "أنا" في جعل الخطاب الروائي خطاباً ذاتياً يقوم على البوح والاعتراف والتصريح والتذويت.

بيد أن الساردة، في القصة الثانية، ستكون خالدة كما يدل على ذلك المقطع التالي:

" أغسطس.

أزهار كثيرة تموت في أغسطس. صبا وعامر، من منكما كان الزهرة ومن كان الحجر؟ وهل تنبت الزهرة في قلب الحجر؟ وأنا إلى أي حد اقتربت وخلف أي سور وقفت؟

أغسطس.

وأنا لم أبك بعد. لا غيم في أغسطس حتى أبكي، والبحر محروق على ضفاف جدة. مسجور قلبي وربما مسجون كدمعي.

وأنت يا صبا عبد العزيز كان يجب أن أهزك بعنف وأصرخ في وجهك (أنت امرأة هشة لاتصلح للحياة. خربتك الكتب. الكتب لاتشبه الحياة والذين يكتبونها حاقدون حرموا متعة الحياة ويريدون أن يحرّموا الآخرين منها).

تبا لي إذ لم أعرفك. تبا لي حين عرفتك. كل هذه الأعوام بيننا وجاءت البارحة لتكشف لي عن جهلي المريع بك. أنت لست امرأة ولست ملاكا، لا ولا شيطانا، وأكاد أجزم أنك لاتنتمين لهذا الكوكب. لم لم تخبريني من أي مجرة جئت فقط كي أعيد رفاتك إلى مثواه الأخير؟!¹⁷⁰

فالضمائر الدالة على وجود الساردة خالدة هي: أنا- قلبي- دمعي... أما الأفعال، فهي: اقتربت- وقفت- لم أبك- أبكي- أهزك- أصرخ...

وهنا، تصبح خالدة هي الساردة، بينما تصبح صبا هي المسرودة لها. وبالتالي، فالرواية قائمة على منطق التناوب، والتوازي، والتشاكل، وتعدد الأصوات، والمنظور الداخلي.

أما المؤشرات الزمنية الدالة على اندماج الساردة صبا في زمان القصة وحكايتها، فهي: ليلتها- في تلك اللحظة- جمعتها هذا المساء- الآن...

¹⁷⁰ - ليلي الجهني: نفسه، ص: 59.

أما المؤشرات المكانية الدالة على تجذير الساردة صبا في المكان، فهي كالتالي: الفضاء الممتد بين عامر وبينني- أن يخسف بي الأرض- أمامك- دفعني بعيدا عنه- رأيت الشواطئ والبيوت التي ارتدناها معا- غرفتي- نركض فيها تحت المطر في شارع قابل وسط أمواج البشر- فنجان نرشفه في المقهى الصغير...

أما المؤشرات الدالة على تجذير الساردة خالدة في الزمان والمكان معا، فهي المؤشرات الزمانية التالية: أغسطس- البارحة...

ونستحضر أيضا المؤشرات المكانية التالية: مررنا بغرفتك- بيتنا- نافذتي- غرفتي- نزلت الدرج- دائما جدة هناك- ظلت البارحة...

وتستند هذه المعينات المكانية والزمانية إلى " التحقيق المكاني والزمني المعاش والمعاشر للتحقق الخطابي المتضمن".¹⁷¹ إلا أننا نلاحظ على مستوى المكان في قصة خالدة أن هناك فضاء دامجاً عاماً Englobant ، وفضاء مدمجاً خاصاً Englobé، فالفضاء الدامج هو جدة، وفضاءاتها المدمجة هي شوارعها وأحيائها وفنادقها ومطاعمها وبحرها:

" تحبين جدة؟

أحيانا وأنت تجولين فيها تحسبين أنك تبحثين عن ذاتك عن تفاصيلك وأسرارك التي توزعتها الشوارع والبيوت والمنعطفات والأسواق. تلوح لك جدة مثل كتاب تخافين أن يباغتك الموت قبل أن تتمي قراءته.

جدة، إلى أي حد يمكن لهذه المدينة أن تكون مغوية؟

أوه، ما الذي جاء بالغواية الآن؟ الغواية كلمة مثيرة موحية لا يحبذون تداولها علنا وأنت مغرمة بكل ما لا يحبذونه. دائما خارجة من حدود أسوارهم متنائية عنهم. جدة أيضا خرجت منذ أعوام بعيدة من أسوارها وأبراجها الحصينة وخندقها وأبوابها التسعة: باب مكة، باب جديد، باب اليمن، وستة

¹⁷¹ - Benveniste, E: Ibid, p:253.

أبواب جهة البحر كلها ظلت خلف جدة، في كتب التاريخ وفي ذاكرة الأولين.¹⁷²

وتثبتت هذه الفضاءات كلها وجود الساردة في الزمن الحاضر، واندماجها معايشة وتحققا في مكان الأحداث الحاضرة بكل إيقاعاتها الدينامكية.

ونخلص من هذا كله أن الساردتين: خالدة وصبا حاضرتان ومندمجتان في القصة سردا، وزمانا، ومكانا: أي أنا - الآن - هنا. ومن ثم، تستند الرواية إلى الضمير الشخصي: أنا - أنت. ومن هنا، فالرواية ذاتية المنحى والاتجاه، وتجعل من الرواية خطابا أوطوبيوغرافيا (سيرة ذاتية) متعدد الأصوات. أي: إنها رواية بوليفونية (متعددة الأصوات) قائمة على تعدد الرواة والسراد.

وعليه، تعد هذه المعينات الإشارية، " في علاقتها بالضمير، وظيفية على مستوى الخطاب؛ لأنها تهدف إلى تجذير وإدماج الأقوال السردية المكونة للخطاب في إطار مكاني وزماني، انطلاقا من علاقة هذه الأقوال بالوضعية الزمانية والمكانية التي يوجد فيها القائل، وهذا يعني ربط الأقوال بعملية القول وبزمن عملية القول وبمكانها".¹⁷³

المطلب الثاني: المعينات في رواية (طريق الحرير) لرجاء عالم

توظف رواية (طريق الحرير) لرجاء عالم مجموعة من الإشارات التداولية؛ حيث وظفت الرواية ضمير المتكلم الذي يحيل على الساردة أو الراوية أو الشخصية المحورية داخل الرواية. ويعني هذا أن الرواية تنبني على تشغيل الشخصية المشتركة التي تتكون من الساردة والشخصية المحورية. بيد أن الشخصية المحورية تتوب - هنا - عن الكاتبة الخارجية أو الكاتبة الضمنية، ضمن رؤية سردية داخلية مركزة. ومن ثم، تبدأ الرواية على إيقاع التدوير، والاسترسال الداخلي، والاحتكام إلى السرد الشخصي الذاتي، كما يبدو ذلك جليا في هذا المقطع الاستهلالي:

¹⁷² - ليلي الجهيني: نفسه، ص: 80-81.

¹⁷³ - عبد المجيد نوسي: نفسه، ص: 52.

"رقصتها سحرت البحّارة، وسارت بأقدامنا العارية على الماء شمالاً، كان في طابعها التشّيت، لولا تدخل الأدلاء الذين أعادوا النوايا شرقاً بخاتمة الجنوب." 174

ويلاحظ أن ضمير المتكلم يؤدي، في رواية رجاء عالم، إلى اختبارات أولية لإعلاء شأن الذات المقموعة، وتحرير الإنسية المكبوتة، وإثبات الكينونة المنسية، تلك الرواية التي طالما هيمن عليها الصوت الذكوري بحال من الأحوال. ويعني هذا أن الكاتبة قد اختارت الصوت النسوي للبوح بالجرأة، والاعتراف بالاختناق والأسر والتكتم. لذا- تسلحت الكاتبة بضمير المتكلم لتثبت هويتها المجروحة، وتعلن ثورتها العارمة ضد القمع والسائد والثابت، وتظهر رغبتها في الانعتاق والتحرر من قيود الواقع المحبط. ومن ثم، يحيل هذا الضمير الداخلي على الكاتبة الضمنية؛ مما يجعلها حاضرة في الرواية نسبياً، مادامت تحرس مسالك السرد، وتتسق بين الشخصيات، و تمارس الحكي والاعتراف والنقد، فالرؤية "مع" تدل على وجود مشاركة بينة ومتداخلة بين الشخصية المحورية في الرواية والشخصية الساردة عبر المسار الروائي للأحداث.

وتظهر الإحالة جلية في هذه الرواية، عندما تربط الكاتبة رجاء عالم اسمها باسم جدها (العالم) الذي كان قبلة الطلاب والعلماء:

"هذا بينما كان صبيان القافلة يتعاركون على سجادة المغربي الموشومة بالوقت، والتي لم تطق الهطول بأرض... فكانت تتقلقل في هواء مصر ورجالاتنا.. ثم حركتها الطيور في طيرانها فتكسرت صورة جدي المكية: ظهر لنا مُعتكفاً في خلوته، وسجّادته تطرح الرزق كما نخلة دائمة... فكان يطعم ويسقي قاصديه مما تحت أشدائها الخضر المُعشوشبة بالذهب وتناقلوا له مُسمى (العالم) ليستقطب طُلاب العلم، يتفياؤن ظلّة ويتبردون .

174 - رجاء عالم: طريق الحرير، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 1995م، ص:8.

وكان يُدرّس الأحكام بلغات الحجاج التي لا تُحصى، ولم يُعرف متى انفرد جُنده بتلقيه تلك الألسن!

انطمست أجزاء من المحفورة، ثم استطعنا تجميع عام اعتكافه العاشر، يوم كفّ لسأئه عن المحو وعينه عن الصلاة.... وتجسّد جذّده البيض وفنّوا يوارونه ظهيرة خلوته. وحين مالت الشمس للقرمزي لم يعثر له الأغواث المكلفون بخدمته على أثر. ... هنا انغلقت المحفورة نهائياً".¹⁷⁵

وهكذا، يظهر لنا هذا المقطع السردي مدى الترابط الموجود بين الشخصية الروائية " الجد العالم"، والكاتبة الضمنية خارج العمل الأدبي (رجاء عالم). علاوة على ذلك، تظل الساردة، بأي حال من الأحوال، ومهما تخفت وراء قناع ضمير المتكلم، شخصية داخلية واصله تحيل على شخصية خارجية. وهنا، يمكن الإشارة إلى جدلية الداخل والخارج في عملية الإبداع الروائي. ومن ثم، لا يمكن الحديث إطلاقاً عن موت المؤلف أو غيابه داخل النص الروائي، حتى ولو أنكرناه، وقفزنا على صورته البيوغرافية الخارجية، فإن بصماته حاضرة داخل النص الروائي، في شكل أطراس ومستنسخات وعلامات حضورية وتكرارية دالة على وجود الكاتب الروائي نفسه، وشاهدة على آثاره الباقية.

المطلب الثالث: رواية سلمى لغازي عبد الرحمن القصيبي

أما رواية (سلمى) (2002م) لغازي عبد الرحمن القصيبي، فهي على العكس، ليست رواية ذاتية تعتمد على ضمير المتكلم، بل هي رواية غيرية تتكى على ضمير الغائب، أو ما يسمى كذلك بالضمير اللا- الشخصي: "إن الشكل المسمى بضمير الغائب، يشمل إشارة لقول حول شخص معين أو حول شيء معين، لكنه غير مرتبط بضمير شخصي خاص... ويمكن أن نصوغ النتيجة بشكل واضح: إن ضمير الغائب ليس بضمير شخصي، إنه صيغة الفعل التي تؤدي وظيفة التعبير عن مقولة الضمير اللا- شخصي".¹⁷⁶

¹⁷⁵ - رجاء عالم: نفسه، ص: 64-65.

¹⁷⁶ - Benveniste, E: Ibid, p: 228.

ومن هنا، يتقابل الضمير اللا- شخصي " هو/هي/ المحايد " مع الضمير الشخصي: أنا ⇨ أنت. ومن ثم، يتميز الخطاب الذاتي القائم على ضمير المتكلم والرؤية الداخلية المصاحبة عن الخطاب الموضوعي الذي يتسم بضمير الغائب، وتشغيل الرؤية من خلف، واستعمال سارد مستقل ومحايد. كما يرتبط ضمير الغائب باللا- اندماج القولي والزماني والمكاني. ويعد اللا-اندماج عملية تعتمد عليها عملية القول لإبعاد - خارج القول- بعض المعينات الأساسية الدالة على الممثل والزمان والمكان، لتعوضها عناصر أخرى، مما يجعل أن اللا- اندماج يتحقق على ثلاثة مستويات: المستوى العاملي- المستوى الزماني- المستوى المكاني.¹⁷⁷

وهكذا يمكن تمثيل خطاطة سيميوطيقية ولسانية لعمليتي الاندماج والاندماج:

الإنسان



الاندماج	اللا-اندماج
أنا ⇨ أنت	هو/هي
الآن	لا الآن
هنا	غير هنا
الحضور	الغياب

ومن المؤشرات الدالة على اللا- اندماج في القول والزمان والمكان، حضور ضمير الغائب باعتباره ضميرا مهيمنا ومؤطرا داخل الرواية، إلى جانب وجود أمكنة وأزمنة خارجية غائبة تدل على عدم اندماج العجوز فيها معاشة

¹⁷⁷ - عبد المجيد نوسي: نفسه، ص: 57.

وتحققا، بل تعيش هذه الفضاءات الماضية عن طريق الاسترجاع والتذكر ، عبر شخصية مستعارة أخرى هي سلمى التي تدخلها العجوز في قلب الزمان لتعيد الأحداث، كما تريدها الأم في تلك الظروف التاريخية الصعبة والحالكة والمهمة:

" تتقلب العجوز على فراشها، والراديو الجديد بجانب رأسها على المخدة. تتحرك أصابعها ، وهي بين النوم واليقظة. ويدور المؤشر بين الإذاعات. فجأة، يتوقف المؤشر، ويتحدث الراديو عن جمال عبد الناصر. ترفف العجوز السمع. برنامج خاص بمناسبة الذكرى الخمسين لثورة 23 يوليو. ويأتيها صوت جمال في خطبة من خطبه النارية. تصغي العجوز. وتصغي. وتغفو." 178

وهكذا، فالعجوز غير متجذرة في زمان القول ومكانه. أي: لم تعيش اللحظات التاريخية التي كان يحكم فيها جمال عبد الناصر مصر الاشتراكية. لذا، يتسم السارد بالغياب والإبعاد الخارجي، ويتم استرجاع الأحداث عن طريق الاستدعاء، وتوظيف الفلاش باك، وتشغيل عملية التذكر. والدليل على ذلك أن السارد والشخصية المحورية (العجوز) يتموقعان في الحاضر ، بيد أنهما يشاركان في أحداث ماضية بعيدة عنهما. ومن هنا، ينقلان أخبارا تتعلق بفضاءات غير متجذرة في الزمان والمكان ، تدل على اللا-اندماج في التزامين والتفضية كالمؤشرات التالية: ثورة 23 يوليو- جمال عبد الناصر- الأندلس- أبو عبد الله الكبير- أيام الخليفة المستعصم- بغداد- محمد عبد الوهاب- أحمد شوقي- أم كلثوم- صلاح الدين الأيوبي...

تشير هذه المعينات والأعلام والمؤشرات الفضائية إلى عدم تجذير السارد أو الشخصية في المكان والزمان حضورا أو معاشة أو تحققا في الراهنية. ويعني هذا أن هناك غيابا ملحوظا للقائل في الزمان والمكان.

178 - غازي بن عبد الرحمن القصيبي: سلمى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 2006م، ص: 9.

وعليه، يمكن التمييز بين حالتين من المتكلم في الحكاية أو الرواية أو القصة: فإما أن يكون الراوي خارجا عن نطاق الحكوي Narrateur Hétérodiégétique ، كما في رواية (سلمى) لغازي بن عبد الرحمن القصيبي، أو أن يكون شخصية حكاية موجودة داخل الحكوي ، فهو إذا راو ممثل داخل الحكوي Narrateur Homodiégétique ، كما في رواية (الفردوس اليباب) لليلى الجهيني، أو رواية (طريق الحرير) لرجاء عالم. وهذا التمثيل له مستويات، فإما أن يكون الراوي مجرد شاهد متتبع لمسار الحكوي، ينتقل أيضا عبر الأمكنة، ولكنه لا يشارك مع ذلك في الأحداث كما في رواية (سلمى) للقصيبي، وإما أن يكون شخصية رئيسة في القصة كما في رواية (الفردوس اليباب) لليلى الجهيني¹⁷⁹.

المطلب الرابع: (رجل جاء...وذهب) لغازي بن عبد الرحمن القصيبي

أما إذا انتقلنا إلى رواية (رجل جاء...وذهب) لغازي بن عبد الرحمن القصيبي (2002م)، فهي رواية ذات السرد الذاتي ، والمتكلم الذاتي، حيث تهيمن الرؤية "مع"، أو الرؤية المصاحبة، فضلا عن وجود ضمير المتكلم والمؤشرات الزمانية والمكانية الدالة على حضور السارد داخل القصة قولا وتزمينا وتفضية. مما يعني هذا أن هذه الرواية ترتكن إلى خطاب التذويت، والسيرة، والاعتراف، والبوح، والتصريح، والاسترسال، والتداعي الشعوري واللاشعوري. بيد أن الساردة، في هذه الرواية، لا تحيل على الكاتب الخارجي الملموس (غازي بن عبد الرحمن القصيبي)، بل تحيل على مؤلفة أنثى أو كاتبة نسوية، وهذه مفارقة رمزية استثمرها الكاتب للهروب من المراقبة والنقد والمحاسبة، ولأسيما أن هذه الرواية صريحة وجريئة في نقدها ؛ لكونها تدين بشدة الأغنياء الخليجيين النفطيين، وتتهمهم بالفساد والمنكر، واستغلال فقر الآخرين، كما يتضح ذلك جليا في روايات عبد الرحمن منيف التي تصب

179 - انظر حميد لحداني: بنية النص السردى من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي،

الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 1981م، ص: 49.

شرارات غضبها على حكام الجزيرة المستبدين ، ولاسيما في رواية (شرق المتوسط)¹⁸⁰.

ومن الشواهد النصية الدالة على اندماج الساردة في القصة والحكاية قولاً وتزميناً وتفضية نذكر النص التالي:

" يعقوب العريان يرفض أن يتركني. يرفض أن ينهي التقمص. من لي بطارد الشياطين؟ يرفض أن يتخلى عني، دقيقة واحدة. وفرص اللقاء تتضاءل مع كل يوم يمر. وعندما قررنا، منصف وأنا، أن نترك الفندق ونفتح متجراً كبيراً في قلب العاصمة، شعرت بأن فرص اللقاء ستندم. كان أمني الوحيد أن يعود إلى الفندق. ويراني. الآن، كيف سيراني؟ ومع احتدام اليأس زادت حدة التقمص. هل أنا موشكة على دخول الجنون الذي تركته، بلا أسف، مع هادي".¹⁸¹

ومن المؤشرات والمعينات الدالة على تجذير الساردة في القصة وجود ضمائر تحليل على حضور الراوية، مثل: يتركني- لي- عني- قررنا- أنا- نترك- نفتح- أمني- يراني- سيراني- تركته... كما توجد معينات زمانية، مثل: دقيقة واحدة- يوم يمر- الآن... ومعينات مكانية: قررنا أن نترك الفندق- نفتح متجراً كبيراً في قلب العاصمة- أن يعود إلى الفندق... كل هذه المعطيات الإشارية دالة على حضور الساردة داخل القصة قولاً وزماناً ومكاناً؛ وهذا ما أكسب النص صيغة ذاتية شخصية.

المطلب الخامس: رواية (يوم التقينا... يوم افترقنا) لخالد الشيخ

وثمة روايات سعودية تحمل سرداً ذاتياً وحضوراً شخصياً، كما يبدو ذلك جلياً في رواية (يوم التقينا... يوم افترقنا) (2003م) لخالد الشيخ¹⁸²، تلك الرواية

¹⁸⁰ - عبد الرحمن منيف: شرق المتوسط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 1981م.

¹⁸¹ - غازي بن عبد الرحمن القصيبي: رجل جاء... وذهب، دار الساقى، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 2005م، ص: 26-27.

¹⁸² - خالد الشيخ: يوم التقينا... يوم افترقنا، الدار الوطنية الجديدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 2003م.

التي تجسد سيرة ذاتية للكاتب الملموس؛ حيث ينوب عنه في ذلك السارد الضمني والشخصية المحورية داخل القصة. ومن المؤشرات الدالة على تدوير الرواية، وتجدير السارد في القصة قولاً وتزميناً وتفضية، وجود ضمير المتكلم كما في هذا الشاهد السردى:

"بعد أن خرجت من بوابة المطار الخضراء والتي تسمح للمسافرين بالمرور دون تفتيش على عكس البوابة الحمراء أخذني التاكسي إلى لندن. أخيراً شاهدت لندن التي بدت شوارعها كنيبة رغم ازدحامها بالناس واحتفالية الأسواق... ألوان ملابس الأطفال والنساء الزاهية وجمال الأجساد الرشيقية. وكانت نجمتي تضيء لتخرج كالمعتاد من بين باقات الزهور وألوان الطيف.. تطل من خلال الغيم كشمس هذه المدينة الضبابية... تلوح بكفيها كطفل يودع شمس الغروب.. آه ها أنت تتراقصين بين قامات الجميلات على امتداد الأرصفة كفرشة تحلق في سماء القلب والذاكرة... تبحث عن دفء الروح في ليل قارس... في محطة القطار وقفت حاملاً أمتعتي وهمي وخوفي وتوجسي.. فرحي وحزني.. عيناى لاتخفيان قلقي... آلاف الأفكار والوساوس... وآلاف الوجوه العابرة... تفحصت كل الوجوه ووجه لندن إلا وجهي... في محطة القطار كنت منهكا أنتظر دوري لصعود عربة الدرجة الثانية باتجاه الشمال الشرقي." 183

تصور هذه الرواية سفر طالب سعودي إلى بلاد الإنجليز رغبة في طلب العلم، والحصول على شهادة تؤهله للحصول على وظيفة مشرفة في بلده، وقد حمل معه، في أثناء سفره، حبه الدفين لنجمته المضيئة التي كان يحبها حبا جنونيا بمدينة الدمام. إلا أنه كان يعاني، في بلاد المهجر، ويلات الغربة الذاتية والمكانية. ناهيك عن الوحدة والشوق والحنين والملل، والفشل في الدراسة، وصعوبة التكيف مع الأوضاع الجديدة. فلم يجد من حل يرضيه سوى الاستسلام لنزواته الشبقية، والبحث عن المرأة التي تؤنسه في لحظات الفراغ واليأس والقنوط، متأثراً في ذلك بصديقه الماجن والشبقي عبد الله الملقب

بأبدول. وفي الأخير، يقرر العودة إلى بلده استجابة لنداء الحب والعشق، وتنفيذا لرغبة والدته التي أخبرته بمرض والده، وفشل أخيه في الحصول على العمل، ورغبة أخته في الزواج. وقد أملت عليه كل هذه الدوافع مغادرة أرض الغربة بسرعة لئلا يتحاق ببلده على غرار أبدول الذي سبقه إلى فعل ذلك. وحينما وصل السارد إلى مدينته الساكنة، فقد وجد نجمته قد تزوجت من غيره، فبقي وحيدا يندب حظه التعيس، ويسترجع ذكريات الوصال والعشق الرومانسي الذي كان يجمعه بجارته المحبوبة. إلا أنه وجد عملا في مركز الحدود الصحراوية؛ مما جعله ذلك سعيدا بحال من الأحوال، ولم تكتمل سعادته في النهاية إلا بعودة نجمته إليه.

وتذكرنا هذه الرواية بنص يحيى حقي (قنديل أم هاشم)¹⁸⁴، تلك الرواية التي تصور لنا التباين الحضاري بين الأنا والآخر، فتتقل لنا جدلية الشرق والغرب، ثم الصراع بين المادة والروح. إلا أن رواية يحيى حقي كانت أكثر درامية وجودة من رواية خالد الشيخ التي ظلت حبيسة خطاب انفعالي عاطفي غير محبوب بشكل درامي متوتر. أي: كان النص خطابا سطحيًا من حيث الاسترسال السردية، والتخطيب التعبيري.

وخلاصة القول، لقد استطاعت الرواية العربية السعودية أن توظف مجموعة من القرائن التداولية، والمعينات الإشارية والملفوظات التواصلية لتبيان موقف المبدع من الواقع أو السياق المرجعي. فهل هو موقف إيجابي مبني على التجذير والاندماج والانصهار في الواقع أم أنه موقف سلبي قائم على الحياد والموضوعية والاندماج؟

184 - يحيى حقي: قنديل أم هاشم، دار المعارف، مصر، القاهرة، الطبعة التاسعة، سنة 1995م.

خاتمة

و**خلاصة القول**، نستنتج أن المقاربة التداولية هي التي تدرس النص في سياقه التخاطبي، والتفاعلي، والإشاري، والتواصلي، والتحاورى؛ بالتركيز على أفعال الكلام، وعمليات التخاطب والتفاعل، والتشديد أيضا على الإحالة، والسياق، والمقصدية، والوظيفة، والتأويل، والاستلزام الحوارى...

بيد أنه من الصعب جدا تطبيق المقاربة التداولية بكل سهولة ويسر على النص الأدبى التخيلى؛ نظرا لتمرده عن المعيار، واتسامه بالتخييل والانزياح والتشويش والخرق، ومجانبة الحقيقة والصدق الواقعي، كما يعترف بذلك التداوليون أنفسهم كسورل، وأوستين، وغرايس، وغيرهم كثير...

إلا أن هناك بعض الباحثين يرى عكس ذلك، كالباحث المغربى محمد مفتاح، أنه بالإمكان تطبيق مفاهيم المقاربة التداولية على النص الأدبى، مادام يتأرجح بين الواقع والتخييل. كما يمكن استعمال نظرية الأفعال الكلامية في مجال

الأدب والنقد، ويمكن تشغيل غيرها من المفاهيم الوظيفية، ولاسيما في مجال المسرح والسرديات.

ومهما تكن من تصورات مختلفة حول إمكانية تطبيق المقاربة التداولية في مقاربة النص الأدبي، فإن هذا النص الخيالي والفني والخيالي قد استفاد - فعلا - من آليات المقاربة التداولية ولسانيات النص استفادة كبيرة، لا يمكن إنكارها بأي حال من الأحوال، على الرغم من صعوبتها النظرية والتطبيقية. كما لا يمكن إطلاقا غض الطرف عن أهميتها، أو الحط من قيمتها، وتتمثل هذه الاستفادة بكل جلاء في كون المقاربة التداولية تنظر إلى النص الأدبي خطابا، ووظيفة، وسياقا، وإحالة، وتأويلا، وحجاجا، وإقناعا، وتلفظا، واتساقا، ومقصدية، وتخطابا، وتفاعلا، واستلزاما حواريا.

ومن ثم، يتأرجح النص الأدبي، في جوهره، بين المعاني الحرفية والمعاني المجازية السياقية، ويجمع بين الأدوار النحوية والأدوار الدلالية والأدوار التداولية، وينتقل في سلمه التعبيري والحجاجي من التركيب والدلالة إلى التداول السياقي والمقامي.

وعليه، تعد التداوليات من أهم الآليات الإجرائية النظرية والتطبيقية التي تسعفنا في تحليل الخطاب تفكيكا وتركيبا، أو دراسته فهما وتفسيرا وتأويلا، سواء أكان ذلك الخطاب المرصود لسانيا أم أدبيا أم نقديا أم فلسفيا أم منطقيًا أم إعلاميا؛ إذ لا يمكن الاستغناء، بأي حال من الأحوال، عن البعد التداولي في دراسة اللغة الإنسانية بصفة عامة، والخطاب الأدبي والنقدي بصفة خاصة.

ثبت المصادر والمراجع

المصادر الإبداعية:

- 1- أبو القاسم الشابي: ديوان أبي القاسم الشابي ورسائله، تقديم وشرح: راجي الأسمر، مؤسسة المعارف للطبع والنشر، بيروت، لبنان، طبعة 2005م.
- 2- جمال أزراغيد: غنج المجاز، شركة مطابع الأنوار المغاربية، وجدة، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2011م.
- 3- خالد الشيخ: يوم التقينا... يوم افترقنا، الدار الوطنية الجديدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 2003م.
- 4- رجاء عالم: طريق الحرير، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 1995م.
- 5- عبد الرحمن منيف: شرق المتوسط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 1981م.

6- غازي بن عبد الرحمن القصيبي: رجل جاء... وذهب، دار الساقى، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 2005م،

7- غازي بن عبد الرحمن القصيبي: سلمى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 2006م.

8- لىلى الجهني: الفردوس اليباب، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، الطبعة الأولى سنة 1999م.

9- يحيى حقي: قنديل أم هاشم، دار المعارف، مصر، القاهرة، الطبعة التاسعة، سنة 1995م.

المصادر العامة:

10- ابن الحاجب: مختصر المنتهى الأصولي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1983م.

11- ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، بيروت، لبنان، بدون تحديد لتاريخ الطبعة.

12- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، طبعة 2003م.

13- إمام الحرمين أبو المعالي الجويني: البرهان في أصول الفقه، تحقيق عبد العظيم الديب، قطر، طبعة 1299هـ.

14- الباقلاني: إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، مصر، طبعة 1963م.

15- الجاحظ: الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية 1965م.

16- الجاحظ: البيان والتبيين، الجزء الأول، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، الطبعة السابعة 1998م.

17- حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تونس، طبعة 1966م.

18- الزركشي: البرهان في علوم القرآن، الجزء الثالث، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر.

- 19- الزمخشري: الكشف عن حقائق التأويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 1977م.
- 20- سيبويه: الكتاب، الجزء الأول، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى 1316هـ.
- 21- السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، دار الفكر، بيروت، لبنان، طبعة 1979م.
- 22- السيوطي: تناسق الدرر في تناسب السور، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1986م.
- 23- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تعليق وتحشية: أحمد مصطفى المراغي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، مصر.
- 24- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، الناشر مكتبة الخانجي ومطبعة المدني، القاهرة، مصر، الطبعة الثالثة 1992م.
- 25- فخر الدين الرازي: التفسير الكبير، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 1981م.

المراجع باللغة العربية:

- 26- أبو بكر العزاوي: الخطاب والحجاج، الأحمديّة للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2007م.
- 27- أبو بكر العزاوي: حوار حول الحجاج، الأحمديّة للنشر، الطبعة الأولى 2010.
- 28- أحمد المتوكل: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: بنية الخطاب من الجملة إلى النص، دار الأمان، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2001م.
- 29- أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 2010م.

- 30- أحمد المتوكل: المنهج الوظيفي في البحث اللساني، منشورات الكلمة بتونس، ومنشورات الاختلاف بالجزائر، ومنشورات دار الأمان بالرباط، ومنشورات صفاف بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 2016م.
- 31- أحمد المجاطي: ظاهرة الشعر الحديث، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية، 2007م.
- 32- أريكشيوني: فعل القول من الذاتية في اللغة، ترجمة: محمد نظيف، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2007م.
- 33- تزفيتان تودوروف: الشعرية، ترجمة: شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى سنة 1987م.
- 34- جميل حمداوي: التداوليات وتحليل الخطاب، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى 2017م.
- 35- جون أوستين: نظرية أفعال الكلام العام، ترجمة: عبد القادر قينيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2006م.
- 36- حسين الواد: في مناهج الدراسات الأدبية، منشورات الجامعة، المغرب، الطبعة الثانية، سنة 1985م.
- 37- حافظ إسماعيل علوي: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 2009م.
- 38- حافظ إسماعيل العلوي ومنتصر أمين عبد الرحيم: التداوليات وتحليل الخطاب، إشراف، دار كنوز المعرفة العلمية، عمان، الأردن، الطبعة الأولى سنة 2013م.
- 39- حميد لحداني: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 1981م.

- 40- ذهبية حمو الحاج: التداولية وإستراتيجية التواصل، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى 2015م.
- 41- ذهبية حمو الحاج: لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، دار الأمل للنشر والتوزيع، منشورات مختبر تحليل الخطاب، تيزي وزو، الجزائر، طبعة 2005م.
- 42- رشيد الراضي: المظاهر اللغوية للحجاج، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2014م.
- 43- رضوان الرقبي: البلاغة والحجاج: بحث في تداولية الخطاب، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى 2018م.
- 44- ريم الهامي: الاقتضاء وانسجام الخطاب، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 2013م.
- 45- سعد البازعي وميجان الرويلي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، سنة 2000م.
- 46- عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية سنة 2007م.
- 47- عبد المجيد نوسي: التحليل السيميائي للخطاب الروائي، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، الطبعة الأولى سنة 2002م.
- 48- عبد الهادي بن ظافر الهشري: إستراتيجية الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة 2004م.
- 49- عبد الهادي بن ظافر الشهري: الخطاب الحجاجي عند ابن تيمية: مقاربة تداولية، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 2013م.
- 50- فيليب هامون: سيميولوجية الشخصيات، ترجمة: سعيد بنكراد، دار الكلام، الرباط، الطبعة الأولى سنة 1990م.

- 51- فرانسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، ترجمة: د. سعيد علوش، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى سنة 1987م.
- 52- فان ديك: النص والسياق، ترجمة: عبد القادر قينيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى سنة 1999م.
- 53- محمد بن علي الحضرين الزهراني: علم الدلالة في الدرس العربي، كنوز المعرفة، عمان، الأردن، الطبعة الأولى سنة 2018م.
- 54- محمد محمد يونس علي: مدخل إلى اللسانيات، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 2004م.
- 55- محمد خطابي: لسانيات النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 1991م.
- 56- محمد الحناش: البنوية في اللسانيات، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 1980م.
- 57- محمد طروس: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، طبعة 2005م.
- 58- محمد مشبال: مقولات بلاغية في تحليل الشعر، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى سنة 1993م.
- 59- محمد مفتاح: دينامية النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 1987م.
- 60- محمد مفتاح: في سيمياء الشعر القديم، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى سنة 1989م.
- 61- محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 1985م.

- 62- محمد محمد يونس علي : مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، دار الكتاب الجديد المتحدة، طرابلس، ليبيا، الطبعة الأولى سنة 2004م.
- 63- مسعود صحرأوي: التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 2005م.
- 64- ميخائيل باختين: شعرية دويستفسكي، ترجمة: الدكتور جميل نصيف التكريتي، دارتوبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 1986م.
- 65- الهادي حمو: مواقف الحجاج والجدل في القرآن الكريم، مطابع النهضة، تونس، طبعة 1981م.
- 66- هاجر مدقن: الخطاب الحجاجي: أنواعه وخصائصه، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى سنة 2013م.
- 67- هدى صلاح رشيد: تأصيل النظريات اللسانية الحديثة في التراث اللغوي عند العرب، منشورات دار الأمان بالرباط، وضفاف ببيروت، ومنشورات الاختلاف بالجزائر، الطبعة الأولى سنة 2015م.

المراجع الأجنبية:

- 68-A.J.Greimas.J.Courtés:Sémiotique.Dictionnaire Raisonné de la théorie du langage. Hachette Université, Paris, 1979.
- 69- Bally:(Les notions grammaticales d'absolu et de relief), In: essais sur le langage, Minuit, Paris, 1969.
- 70- Benveniste, E: Problèmes de linguistique générale2, ED, Gallimard, Paris, 1974.
- 71- C.K.Orecchioni: L'énonciation de la subjectivité dans le langage, Paris, Armand Colin, 1980.
- 72-Charles W. Morris: Foundations of the Theory of Signs(1938). Tr. fr. partielle : « Fondements de la théorie des signes », *Langages*, vol. 35 (1974), Paris, Larousse .

73-Charles W. Morris: Signification and Significance (1964) .

74-Charles W. Morris: Signs, Language, and Behavior (1946) .

75-Charles W. Morris: Writings on the General Theory of Signs (1971).

76- Émile Benveniste: Problèmes de linguistique générale 1, ED, Gallimard, Paris, 1966.

77- Fillmore :(Deictic categories in the semantics of come), Foundations of language 2, 1966.

78- François Récanati: La transparence et l'énonciation pour introduire à la pragmatique, Paris, Seuil, 1979.

79-Greimas: Maupassant, la sémiotique du texte: exercices pratiques, éditions du Seuil, Paris 1976.

80- H.Grice. (Logic and conversation), In Steven David (ed), Pragmatics: A reader, New York, Oxford University press, 1991.

81-Halliday, M.A.K and R.Hassan: Cohesion in English.Longman.London.1976.P:37.

82-J.L.Austin: Quand dire, c'est faire, Editions du seuil, Paris, 1970.

83-John Dewey, « Peirce's Theory of Linguistic Signs, Thought, and Meaning. », The Journal of Philosophy, Vol. 43, No. 4, 14 février 1946.

84-John R.Searle: les actes de langage, Collection, savoir Herman, Paris, 1972.

85-kroon,Caroline : 1997, Discourse markers, discourse structure and functional grammar.In:Connolly,Vismans and Gatward(eds),70.

- 86-Levi-Strauss: Anthropologie structurale, Plon, Paris, 1958.
- 87- MOESCHLER J., : Argumentation et conversation : Eléments pour une analyse pragmatique du discours, université de Genève, HATIER-CREDIF.1985
- 88-O.Ducrot:(Analyse pragmatique),Communication 32,1981..
- 89-Paul Ricoer: La métaphore vive. Seuil, Paris, 1975.
- 90-R.Jakobson: Essais de linguistique générale, Minuit, Paris, 1963.
- 91-Roland Posner, Classics of Semiotics, New York, Springer US, 1987 ([ISBN 978-1-4757-9702-2](https://doi.org/10.1007/978-1-4757-9702-2)), “Charles Morris and the Behavioral Foundations of Semiotics”.
- 92-Morris and the Behavioral Foundations of Semiotics”.
- 93-W. James : le pragmatisme, traduction E.Le Brun, Edition Flammarion, 1968.
- 94-Weinrich Harold: Le temps, Seuil, Paris, 1973.
- 95-Wunderlich, Dieter: (Pragmatique, situation d'énonciation et deixis), Langages, 26, juin1972.

الرسائل والأطاريح:

- 96- رحيم مجيد راضي: الانسجام النصي في القرآن الكريم (الميزان في تفسير القرآن للسيد الطباطبائي أنموذجاً)، رسالة جامعية بإشراف جابر محيسن عليوي الركابي، كلية الآداب، جامعة ذي قار، العراق، الموسم الجامعي 2014م.

المخطوطات:

- 97- مصطفى جمال الدين: البحث النحوي عند الأصوليين، المكتبة الوطنية، بغداد، العراق، الرقم 1485، السنة 1980م، ورقة 305.

المقالات العربية:

98- ترنس هوكس: (مدخل إلى السيمياء) ، مجلة بيت الحكمة، المغرب، العدد 5، السنة الثانية، سنة 1987م.

99- رضوان الرقبي: (الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله)، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد 2، المجلد 40، أكتوبر- ديسمبر 2011م.

100- عز الدين إسماعيل: (جماليات الالتفات)، ضمن أعمال الندوة التي أقامها النادي الثقافي بجدة (السعودية)، سنة 1986-1987م حول قراءة التراث النقدي.

الملحق

ملحق القصيدة الشعرية:

نشيد الجبار (هكذا غنى بروميثيوس) لأبي القاسم الشابي

سَأَعِيشُ رَغَمَ الدَّاءِ وَالْأَعْدَاءِ
أَرْنُو إِلَى الشَّمْسِ الْمَضِيَّةِ.. هَازِنًا
لَا أُرْمِقُ الظِّلَّ الْكَثِيبَ..، وَلَا أَرَى
وَأَسِيرُ فِي دُنْيَا الْمَشَاعِرِ، حَالِمًا،
أُصْغِي لِمَوْسِيقَى الْحَيَاةِ، وَوَحِيهَا
وَأُصِيخُ لِلصَّوْتِ الْإِلَهِيِّ، الَّذِي
وَأَقُولُ لِلْقَدَرِ الَّذِي لَا يُنْثَتِي
"- لَا يَطْفِئُ اللَّهَبَ الْمُوجَّعَ فِي دَمِي
"فَاهْدِمُ فَوَادِي مَا اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّهُ
لَا يَعْرِفُ الشُّكُوى الذَّلِيلَةَ - وَالنُّكَاءَ،
"وَيَعِيشُ جَبَّارًا، يَحْدَقُ دَائِمًا
وَأَمْلَأُ طَرِيقِي بِالْمَخَافِ، وَالدَّجَى،
وَأَنْشُرُ عَلَيْهِ الرُّعْبَ، وَأَنْثُرُ فَوْقَهُ
"سَأَظِلُّ أَمْشِي رَغَمَ ذَلِكَ، عَازِفًا
"أَمْشِي بِرُوحِ حَالِمٍ، مَتَوَهِّجٍ

كَالنَّسْرِ فَوْقَ الْقِمَّةِ الشَّمَاءِ
بِالسُّحُبِ، وَالْأَمْطَارِ، وَالْأَنْوَاءِ
مَا فِي قَرَارِ الْهَوَاةِ السُّودَاءِ...
غَرْدًا - وَتِلْكَ سَعَادَةُ الشُّعْرَاءِ
وَأَذِيبُ رُوحَ الْكَوْنِ فِي إِنْشَائِي
يُحْيِي بَقْلِي مَيِّتَ الْأُصْدَاءِ
عَنْ حَرْبِ آمَالِي بِكُلِّ بَلَاءِ:
مَوْجُ الْأَسَى، وَعَوَاصِفُ الْأَرْزَاءِ
سَيَكُونُ مِثْلَ الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ"
وَضَرَاةَ - الْأَطْفَالِ وَالضُّعَفَاءِ
بِالْفَجْرِ..، بِالْفَجْرِ الْجَمِيلِ، النَّائِي
وَزَوَابِعِ الْأَشْوَالِ، وَالْحَصْبَاءِ
رُجْمَ الرَّدَى، وَصَوَاعِقِ الْبُؤْسَاءِ"
قِيثَارَتِي، مَتَرْنَمَا بَغْنَائِي"
فِي ظُلْمَةِ الْآلَامِ وَالْأَدْوَاءِ"

فَعَلَامَ أَخْشَى السَّيْرَ فِي الظُّلُمَاءِ!"
 أَنْغَامُهُ، مَا دَامَ فِي الْأَحْيَاءِ"
 إِلَّا حَيَاةَ سَطْوَةِ الْأَنْوَاءِ"
 عُمْرِي، وَأُخْرَسَتِ الْمَنِيَّةُ نَائِي"
 قَدْ عَاشَ مِثْلَ الشُّغْلَةِ الْحُمْرَاءِ
 عَنْ عَالَمِ الْأَثَامِ، وَالْبَغْضَاءِ"
 وَأَزْتَوِي مِنْ مَنْهَلِ الْأَضْوَاءِ"
 هَذَمِي وَوَدُّوا لَوْ يَخْرُ بِنَائِي
 فَتَخَيَّلُوا أَنِّي قَضَيْتُ دِمَائِي
 وَجَدُوا...، لِيَشُوبُوا فَوْقَهُ أَشْلَائِي
 لَحْمِي، وَيَرْتَشِفُوا عَلَيْهِ دِمَائِي
 وَعَلَى شِفَاهِي بِسْمَةِ اسْتِهْزَاءِ:
 وَالنَّارَ لَا تَأْتِي عَلَى أَعْضَائِي
 يَا مَعْشَرَ الْأَطْفَالِ تَحْتَ سَمَائِي"
 بِالْهَوْلِ قَلْبُ الْقَبَةِ الزَّرْقَاءِ"
 فَوْقَ الزُّوَابِعِ، فِي الْفَضَاءِ النَّائِي
 خَوْفَ الرِّيَّاحِ الْهَوِجِ وَالْأَنْوَاءِ..
 غَتَّ الْحَدِيثِ، وَمَيَّتَ الْأَرَاءِ"
 وَتَجَاهَرُوا - مَا شِئْتُمْ - بِعِدَائِي"
 وَالشَّمْسُ وَالشَّفَقُ الْجَمِيلُ إِزَائِي:
 لَمْ يَحْتَفِلْ بِحَجَارَةِ الْفَلَسْطَاءِ"

النُّورَ فِي قَلْبِي وَبَيْنَ جَوَانِحِي
 "إِنِّي أَنَا النَّايَ الَّذِي لَا تَنْتَهِي
 "وَأَنَا الْخِصْمُ الرَّحْبُ، لَيْسَ تَرْيَدُهُ
 أَمَّا إِذَا خَمَدَتْ حَيَاتِي، وَانْقَضَى
 "وَحُبَا لِهَيْبِ الْكَوْنِ فِي قَلْبِي الَّذِي
 فَأَنَا السَّعِيدُ بِأَنْنِي مُتَحَوِّلٌ
 "لِلْأَذْوَبِ فِي فَجْرِ الْجَمَالِ السَّرْمَدِيِّ
 وَأَقُولُ لِلْجَمْعِ الَّذِينَ تَجَسَّمُوا
 وَرَأُوا عَلَى الْأَشْوَاكِ ظِلِّي هَامِدًا
 وَغَدُوا يَشُبُّونَ اللَّهْيَبَ بِكُلِّ مَا
 وَمَضُّوا يَمْدُونُ الْخَوَانَ، لِيَأْكُلُوا
 إِنِّي أَقُولُ - لَهُمْ - وَوَجْهِي مُشْرِقٌ
 "إِنَّ الْمَعَاوِلَ لَا تَهْدُ مَنَاكِبِي
 "فَارْمُوا إِلَى النَّارِ الْحَشَائِشَ...، وَالْعَبَا
 "وَإِذَا تَمَرَّدَتِ الْعَوَاصِفُ، وَانْتَشَى
 "وَرَأَيْتُمُونِي طَائِرًا، مَتَرْنَمًا
 "فَارْمُوا عَلَى ظِلِّي الْحَجَارَةَ، وَاخْتَفُوا
 وَهُنَاكَ، فِي أَمْنِ الْبُيُوتِ، نَطَارَحُوا
 "وَتَرْتَمُوا - مَا شِئْتُمْ - بِشَتَائِمِي
 أَمَّا أَنَا فَأَجِيبُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ
 "مَنْ جَاشَ بِالْوَحْيِ الْمُقَدَّسِ قَلْبُهُ

السيرة العلمية:



- جميل حمداوي من مواليد مدينة الناظور.
- حاصل على دبلوم الدراسات العليا سنة 1996م.
- حاصل على دكتوراه الدولة سنة 2001م.
- حاصل على إجازتين: الأولى في الأدب العربي، والثانية في الشريعة والقانون.
- تابع دراساته الجامعية في الفلسفة وعلم الاجتماع.
- أستاذ التعليم العالي بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بالناظور.
- أستاذ الأدب الرقمي بـماستر الكتابة النسائية بكلية الآداب تطوان .
- أستاذ الرواية ومناهج مابعد الحداثة بـماستر النثر العربي القديم بكلية الآداب تطوان.
- أستاذ الديكتيك والبيداغوجيا ومناهج البحث التربوي بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بمدينة الناظور.
- باحث في السوسيولوجيا، والسيكولوجيا، والبيداغوجيا، والأنثروبولوجيا، والعلوم القانونية والسياسية، والفن، والفلسفة والفكر الإسلامي، والقانون والشريعة.
- أستاذ الأدب العربي، ومناهج البحث التربوي، وعلم النفس التربوي، والإحصاء التربوي، وعلوم التربية، والتربية الفنية، والحضارة الأمازيغية،

وإدراكك التعليم الأولي، والحياة المدرسية والتشريع التربوي، والإدارة التربوية، والكتابة النسائية...

- أديب ومبدع وناقد وباحث، يشغل ضمن رؤية أكاديمية موسوعية.
- شاعر وقصاص وكاتب مسرحي وهايكست وشاعر، يكتب للصغار والكبار.
- مثل دوراً سينمائياً في الفيلم الأمازيغي (عسل المرارة) لمنتجه عبد الله فرحوس، وإخراج علي الطاهري
- حصل مقالته (نظرية ما بعد الاستعمار) على جائزة الموقع السعودي (الألوكة).
- حصل على جائزة مؤسسة المثقف العربي (سيدني/أستراليا) لعام 2011م في النقد والدراسات الأدبية.
- حصل على جائزة ناجي النعمان الأدبية سنة 2014م.
- عضو الاتحاد العالمي للجامعات والكليات بهولندا.
- رئيس الرابطة العربية للقصة القصيرة جداً.
- رئيس المهرجان العربي للقصة القصيرة جداً.
- رئيس الهيئة العربية لنقاد القصة القصيرة جداً.
- رئيس الهيئة العربية لنقاد الكتابة الشذرية ومبدعيها.
- رئيس جمعية الجسور للبحث في الثقافة والفنون.
- رئيس مختبر المسرح الأمازيغي.
- عضو الجمعية العربية لنقاد المسرح.
- عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية.
- عضو اتحاد كتاب العرب.

-عضو اتحاد كتاب الإنترنت العرب.

-عضو اتحاد كتاب المغرب.

- له إسهامات نظرية في التربية، وفن القصة القصيرة جدا ، وفن الكتابة الشذرية، والأدب الرقمي، والمسرح، ومناهج النقد الأدبي، والكتابة النسوية، والبلاغة الرحبة...

- باحث في الثقافة الأمازيغية المغربية، ولاسيما الريفية منها.

- خبير في البيداغوجيا والثقافة الأمازيغية والأدب الرقمي.

- ترجمت مقالاته إلى اللغة الفرنسية و اللغة الكردية.

- نشرت كتبه بالمغرب، والجزائر، وتونس، وليبيا، والأردن، ولبنان، والمملكة العربية السعودية، والإمارات العربية المتحدة، والعراق.

- شارك في مهرجانات عربية عدة في كل من: الجزائر، وتونس، وليبيا، ومصر، والأردن، والسعودية، والبحرين، والعراق، والإمارات العربية المتحدة، وسلطنة عمان...

- مستشار في مجموعة من الصحف والمجلات والجرائد والدوريات الوطنية والعربية.

- نشر أكثر من ألف وسبعين مقال علمي محكم وغير محكم، وعددا كثيرا من المقالات الإلكترونية. وله أكثر من (150) كتاب ورقي، وأكثر من مائتي (200) كتاب إلكتروني منشور في موقعي (المتقف) وموقع (الألوكة)، وموقع (أدب فن).

- ومن أهم كتبه: محاضرات في لسانيات النص، وسوسيولوجيا الثقافة، وميادين علم الاجتماع، وأسس علم الاجتماع، والعوالم الممكنة بين النظرية والتطبيق، والأدب الرقمي بين النظرية والتطبيق، وفقه النوازل، ومفهوم الحقيقة في الفكر الإسلامي، ومحطات العمل الديكتيكي، وتدبير الحياة

المدرسية، وبيداغوجيا الأخطاء، ونحو تقويم تربوي جديد، والشذرات بين النظرية والتطبيق، والقصة القصيرة جدا بين التنظير والتطبيق، والرواية التاريخية، تصورات تربوية جديدة، والإسلام بين الحادثة وما بعد الحادثة، ومجزئات التكوين، ومن سيميوطيقا الذات إلى سيميوطيقا التوتر، والتربية الفنية، ومدخل إلى الأدب السعودي، والإحصاء التربوي، ونظريات النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحادثة، ومقومات القصة القصيرة جدا عند جمال الدين الخضير، وأنواع الممثل في التيارات المسرحية الغربية والعربية، وفي نظرية الرواية: مقاربات جديدة، وأنطولوجيا القصة القصيرة جدا بالمغرب، والقصيدة الكونكريتية، ومن أجل تقنية جديدة لنقد القصة القصيرة جدا، والسيميولوجيا بين النظرية والتطبيق، والإخراج المسرحي، ومدخل إلى السينوغرافيا المسرحية، والمسرح الأمازيغي، ومسرح الشباب بالمغرب، والمدخل إلى الإخراج المسرحي، ومسرح الطفل بين التأليف والإخراج، ومسرح الأطفال بالمغرب، ونصوص مسرحية، ومدخل إلى السينما المغربية، ومناهج النقد العربي، والجديد في التربية والتعليم، وببليوغرافيا أدب الأطفال بالمغرب، ومدخل إلى الشعر الإسلامي، والمدارس العتيقة بالمغرب، وأدب الأطفال بالمغرب، والقصة القصيرة جدا بالمغرب، والقصة القصيرة جدا عند السعودي علي حسن البطران، وأعلام الثقافة الأمازيغية...

- عنوان الباحث: جميل حمداوي، صندوق البريد 1799، الناظور 62000، المغرب.

- جميل حمداوي، صندوق البريد 10372، البريد المركزي، تطوان 93000، المغرب.

- الهاتف النقال: 0672354338

- الهاتف المنزلي: 0536333488

- الإيميل: Hamdaouidocteur@gmail.com

.Jamilhamdaoui@yahoo

كلمات الغلاف الخارجي:

إذا كانت المقاربة التداولية قد عرفت انتشاراً في الغرب، فإن هذه المقاربة مازالت في بداياتها الأولى في العالم العربي، على الرغم من وجود آثارها في تراثنا العربي القديم في البلاغة، والفقه، والفلسفة، وأصول الفقه...، ولم يتم استدماجها بعد في حقلنا الثقافي العربي الحديث والمعاصر لمقاربة النصوص والخطابات الأدبية والإبداعية، ماعداً بعض الاستثناءات القليلة التي تعد على الأصابع.

الثمن: 40 درهما